على درب المحبة

بين الأزهر والفاتيكان

بقلم

مريم توفيق



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد
اسـم الكتاب : على درب المحبة
المـــــــؤلف : مريم توفيق
رقـم الإيداع : ٢٠١٨/١٥٢٣٦م
الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٤-٠٦٨-٦

الطبعة الأولى ٢٠١٨



الإهداء

ذلك سر للإله بهما ....

كيف ارتقيا فى الحب منزلة باتت حديث الناس بالشرق والغرب؟

ماذا نقول لمن جعلا النبل ميراثا ، أقحوان ربيع عطره نفحا؟

فى الروح جمالهما ما برحا يطيبان الأيام، والأجر من الرحمن دوما.

نسجا للتاريخ من أفنان الروض عهدا بقرآن وإنجيل على الأزمان يبقى لنا دررا.

يا طيب .. لم نر إلاك بدرا ، طاف سناه بالسلام ، لا تبغى غير الود والهدى ، دعوت بالحب نجما وفرقدا فتبسما وتوددا.

وعند الموعد المأمول للقياك يا قداسة البابا، هلل القلب اشتياقا يطلق الأفراح للدنيا ، فحضنت الأشعار فى سحر أليف ، أورقت الأشجار زهرا فى الخريف ، منه نور البصيرة ، أهداه رب الخليقة المحيا الصبوح ، فأطل على الوجدان أعنابا وتفاحا وزهرا مكللا.

فهنيئا لنا قلبين من لجين، ملح الأرض ، لنجمع أصوات الحروف جسرا للقوافى والبحور، يوقظ هامد الأشواق فى حنايا الصدور ..

باقات من الاستنارة والمحبة

بعشق صاف ، وولاء راسخ للأوطان ، تصافحنا المبدعة «مريم توفيق» بهذا السفر الجليل ، المفعم بالبهاء ، وهو السفر الذى جاء مزيجاً جمالياً موفقاً من شذى الترجمة الذاتية ، وفن المحاورة الأدبية الفكرية وفلذات حية من أدب الرحلة .

تصور المبدعة فى ثنايا سطورها المتدفقة مشهد لقائها مع شيخ الأزهر العالم الجليل الدكتور أحمد الطيب ، الذى احتفى بها ، فكرا إبداعيا ووطنيا ، كل الاحتفاء .

ثم تعرج المبدعة إلى رحلتها المثيرة إلى إيطاليا ومنها تسلمنا إلى أروقة الفاتيكان للقاء الحبر الأعظم ، الذى خص المبدعة بأول حوار ضاف راق عميق ، امتد نحوا من ساعتين مع مثقف عربى ، ويشكل هذا الحوار سبقا اختراقيا / فكريا توشك الأديبة أن تنفرد به، حصرا .

تطرق حوار المبدعة مع الإمام الأكبر والحبر الأعظم ، لكل السجالات الفكرية الراهنة ، ولكل القضايا التى تشغل موقع الصدارة من الوعى الإنسانى الحديث ، وجاءت الحوارات ملفوفة بأداء صياغى لغوى رفيع ، يلائم جلال اللقاء وروعة المشهد ، كما طوفت بنا كاميرا (الراوى) بين الأمكنة الإيطالية المثيرة الرائقة بالألق .

جاء الكتاب ، وثيقة وشهادة وحوارا ، وبقى هذا الجهد الفكرى الراقى خليقا أن يشغل موقعا قيما من أرفف المكتبة العربية الحديثة.

د . حسام عقل
عضو هيئة التدريس بجامعة عين شمس
ورئيس ملتقى السرد العربى

على درب المحبة

لماذا ؟

لم يكن سؤالا ، بل كان نصل سكين فى جنح الليل يباغت الصبح، يخضب بالدماء المساء ، يهفو لكسر المآذن ، البيت وهيكل الرب ، يعقد اتفاقا مع الأشباح تطارد أم الدنيا ، غامت من القسوة الدنيا ، تراكم الحزن من هجر القصائد ، الكروان وظلال الأشجار ، توارى الفرح خلف أنات الثكالى ، جبال من الكمد فى كل دار ، فمن هم الأشقياء الذين راحوا فى سباق مع الإجرام يجهزون على خير الأجناد والكل صيام فى الشهر الفضيل ؟ من الكذوب عاشق الأذى للناس الذى راح يفسر الحق بالضلال ؟ يصب اللعنات على الأفق البديع ثم يعقد الصفقات لكى يلهببالسياط ظهور الآباء والجدود ، يقسم بالويلات والسوء المبين أن يحرق فى انتشاء قلب الأم والرضيع ؟ من يرسل طيور الخوف المهيب لتنحدر النجوم ، تنبت الحنظل فى كل الربوع ؟ تلونت الأناجيل بالأحمر القانى فى طنطا والإسكندرية ، فى حلوان والبطرسية، كيرياليسون ، كيرياليسون رددها المصلون ومعناها يارب ارحم ، يارب احفظ بلادنا من عدو الخير الذى يئن دوما من شهوة الذئاب حين تجوع ، الرابض فى غسق الظلام يعزف اللحن الأخير ، تطايرت الأشلاء فى مسجد الروضة بالعريش والكل سجود، الله أكبر الله أكبر ، مازال الأطفال يكبرون ويبتهلون إلى الله عز وجل أن يبارك الأمة ، أما سيناء فالرمال تحكى عشق الوطن المتغلغل فى شرايين الأوفياء للأرض والعرض ، سيناء كل نبت فيها ربانى ، سقاه أبنائى ، ساطع النعمانى ، خالد مغربى ، أحمد منسى ، ألبير وكيرلس، بيشوى ومينا ، يا الله من عبأ أفئدة الوحوش بالحقد على كل جميل ، عانينا من فرقة الأحباب ، زهرة الشباب فى الثرى يا أعز الولد ياكبدى .

يارب العرش العظيم وأنت نور صنعت كل مايبهج القلوب الدجالون لا يبالون بدمع الأجنة فى البطون ، يرسمون الرعب على جباه الولد لحظة قتل أبيه ، يعبثون برفات أولياء الله الصالحين ، الهرم صنم فلندمره ، أما أبو الهول فالثأر منه واجب ، كل فن رجس، وكل علم مكروه

هكذا يقول الجهلاء ، بلا قيود يبحرون فى الإفك والتضليل ، يدّعون أنهم على يقين ، وأن ما يقترفونه من آثام فلنصرة الدين ، لكن بئس مايرتكب الطغاة فى حقك يا إلهى ، فى حقك ياوطنى العظيم ، من يتدثرون بالقنابل لا يعلمون أنهم مخدوعون ملعونون حتى المنتهى سيموت بالخزى كل من داس ثراك مخربا، الشهداء فى جنان الخلد أحياء وفى ذاكرة التاريخ نور، الشهداء من يجلسون مع الأبرار والرسل الأطهار المكرمين .

يا مريم

ماذا ستفعلين وأنت تستشيطين غضبا من ركام الوجد ؟ فر منك الأمان ، تسيرين فى الكون على غير اهتداء؟ تبكين نارا هشمت فيك الجناح؟ تنددين وتشجبين مع الأدباء طعنة الغدر فى قلب مصر ؟ ثم تفكرين فى شد الرحال لمواساة أم الشهيد كما فعلت بعد ذبح الواحد وعشرين مصريا على سواحل (سرت) بليبيا ، فصار الغناء نواحا والتراتيل أنينا ؟ بالتأكيد ستنزوى فى الركن تسطرين بحروف القهر الشعر الحزين ؟ وحالما تنتهين ستعودين لنقطة البدء مع حادث جديد بشع أليم ، فمتى يصفو لنا الدهر ؟ الإرهاب ليس له وطن ، وليس له دين .

لماذا تشعرين بأنك مصفدة اليدين كلما عدت بالذاكرة عشرات السنين ومازلت بالضفيرتين ؟ عندما كان الحب نبراس أرض المعز والقلوب أصفي من الماء ، لم نسمع بتفجير بيوت الله لتصبح فى صمت الكثبان لم يقتل فى وضح النهار رجال الدين كما حدث للشهيدين الشيخ عماد عفت والقمص سمعان شحاتة ، ماذا عن أولادى وأحفادى ؟ هل أترك لهم الإرث قصائد الحب والغزل وقصص الغرام ، همس الطيور في الفجر الندى ، عشق النوارس للبحور ؟ الصفصافة والتوتة وكرمة العنب والكوخ المرسوم على بابه الحرفان وبينهما قلب وسهم ؟ أترك الإرث صراع النجمات للفوز بالقمر الحانى الوليد ؟ ماذا أفعل بالحدائق والربيع فى القصيد؟ ماذا أربح إذا كسبت الأشعار وخسرت آيات القرآن الكريم ومزامير الإنجيل ؟

لكن لا للخنوع ، وألف لا للصمت المقيت ، دون الوطن يموت الحب فى المهد ، دون الوطن يهدم الباب والشباك فيفر القلبان كلٌ إلى سبيل ، دون الوطن تهرب العصافير مذبوحة في مواسم الترحال ، تموت الكرمة وأشجار التوت من عواصف الحرمان للأمان ، دون سقف ودون جدران يبيت الحب فى العراء ، فمن يحميه من الصقيع والهجير ؟

إذن كل ماسطرته يا مريم مآله إلى زوال ، طالما لم تحصنين الدواوين بإرادة من فولاذ ، أنت تستطيعين الوقوف كالحجر الصلد فى وجه خائنى العهود ، بإمكانك نزع الصدأ عن سود القلوب ، فاعتصمى بالصبر ، وتوكلى على الله إنه السميع المجيب.

يامريم : لن تشبعك الرطب دون أن تهزى النخل ، لن تقرى عينا دون جهد ؟ ستظلين فى ظمأ لإطعام طائر البهاء ، من كان ينقر شباكك ومازال في جناحيه جرح قديم ، طائر البهاء الذى أبى أن يرحل مع أسراب الطيور ولك مع الوحدة درب طويل ، هل ستنكرينه كما أنكر يهوذا الإسخريوطى السيد المسيح (له المجد) فسلمه لليهود للصلب والتعذيب ؟ إذا فعلت ذلك يامريم تصبحين بلا هوية ، بلا ذاكرة ، تتسربين كالماء من بين أنامل الحياة ، لماذا لا تكونين كالنخيل فى وجه الإعصار لا يلين ؟

وراح صوت العقل ينادينى لكى أشعل فراشات القصيدة ، فبقائى مرهون ببقاء الوطن الأبى ، أحتضن طائرى وحلمى الآتى ، سوف أضىء كل حروف الصمت ، أسقط صروح القهر ، فمازال كلام العشق للوطن رقراقا يحرك بوجدانى أوتار الهوى ، يتألق فى روعة واتقاد .

فيا مصر..

وعدا منى أن أكون رسول مودة ، أصلى باكر والفجر، منتصف الليل والتهجد ، فالمجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرة ، أحنو على كل الكون ، بالسلام أمد اليد حتى للأعداء عملاً بقول السيد المسيح « له المجد » : أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعينيكم ، أحسنوا إلى مبغضيكم ، وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ».

وعملا بقول الله تعالى فى كتابه العزيز : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم» (صدق الله العظيم) ، أمد الكف بزهور بيضاء وأغصان ندية ، نروى السنابل معا بماء الورد فتطرح خبزا طيبا ، نكسره بحبات من ملح الأرض فيظل فينا الحب للأبد ، نسدل الستائر على

الأيام الرمادية ، نطوى صحائف من رمال وشوك ، وليكن عهدنا أمام الله أن نصونك يا وطن الكرامة عهدنا أن نعيد لك الرونق والجمال ، فلا إبن ضال يسعى لشق السفينة ، ولا مأجور يبيعها بالبخس ، سوف أبدأ بنفسى ربما صرت معول بناء فيلقى هؤلاء السلاح بعيدا ، يتوبون إلى رب العالمين وإلى رشدهم يرجعون

أول السطر

أطوف بالذكريات ، أستعيد الماضى للحاضر زهرة تندى وقلب يخفق ، أكوام من الأحلام تطيب بها الأيام ، أستعيد الروض وشمس الضحى ، أستعيد القيثار ، عناقيد الكرمة ودوحة العشق ، صفصافة بالحب مالت على النيل كم شهدت أسرار غزل الصبايا ، فما الفائدة إن ظل الشوق للرحيق الخالد حبيس الفؤاد ، متى انتفض وأبوح بسر الحب دون رياء ؟ متى أصرخ فى وجه القاتل : قف عندك ، طهر من الشر قلبك ، ياضرير الفؤاد تلك الخطة من صنع عدوك ، فى بيت لحم يكدرون صفاء كنيسة المهد ، مسرى النبى الكريم من الأشباح يستجير ، ماذا فعلت والتهويد فى القدس يجرى على قدم وساق ؟ كم تلقيت من أموال لذبح مصر دون وخز للضمير؟ عجبت كيف تصفق للسلاسل فى اليدين ، وطوفان الجنود فى الأقصى يعصبون عيون الأبرياء ، يا أعمى كيف تصم أذنيك وصدى صراخ الرضع والكهول يرتد فى الأفلاك ؟ غابت فيك الشهامة لا تحفل بطلة الرجاء من أعين أطفال البراءة ، أيها المرائى أين المروءة ؟

فقط تذكر أنه متى انتهت الرحلة لن يجدى الاختباء ، فأمام العادل الكل سواء ، وبالله عليك كيف يكون الجواب عن الدم المراق ؟ عن إغواء الشباب بالدجل للسير في درب الهلاك ؟ كم طير من العجز بكى أيكه ؟ لن يجدى الندم والنار تلتهمك دون انقطاع تحرق من حرق الأم والأولاد ، من دمر الأرض فجف الزرع والنهر، من أبكى الطيور وأعشاشها تذروها الريح فى كل واد .

يامريم سطرت من القوافى مايكفى عن أم الدنيا ، فماذا فعلت أمام بحور الدماء وموت البساتين ؟

كم أهدرت من الوقت فى البكاء والنحيب كلما تراءت لعينيك صور الجدات تولولن لغياب الحفيد ، البكاء من شيم الضعفاء هكذا يكون الاعتراف بالحق ، أين الوطنية فى (السير جنب الحيط) ؟ لكن طوبى للصامدين فى وجه سطوة الجلاد .

ورحت أكفكف دمعى ،عبأت بالزيت مصباحى ، فأنا نبتة الدفء بنت الشموس عروس الضياء ، سأواصل النداء على الماضى ، هنا ورود ، وهناك ياسمين ، الكل عاشق يامصر للعش الأمين ، أوغل من جديد فى الزمن النبيل ، أبحث عن ملاذ بين قوافل الذكريات لأستعيد وطنى من الجائعين للفتن وبيننا المراؤون يختبئون ، مريم لم تلمح شرطيا على أبواب الكنائس يوما ما ، العلاقات الممتدة بين المسلمين والمسيحيين جذورها الضاربة فى الأعماق مع الأيام تصير أمتن ، فما الذى بدل الأفكار بأخرى هدامة ؟ من يئد الأحلام فتهرب البلابل من الروض النضير ؟

وجاء كتاب (عشق مختلف جدا) باكورة ثلاثية السلام ، وكان السؤال المطروح لماذا اخترت عنوانا أوحى للقارىء أنها قصة حب ملتهبة بين حبيبين ؟

الحقيقة أن مابيننا كمصريين عصىّ على التفريق ، لن تقوى علينا الحيات والعقارب ، العشق بيننا أقوى من أعتى البراكين والزلازل والأعاصير ، العشق بيننا لن يضمحل أو يموت ، فطرنا على المحبة والوئام منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام ، فبات لكل منا قصته مع كتاب العشق ، الكل يستعيد الطفولة ، الشباب ، للشيخوخة رونق حينما نتذكر أزمانا وردية ، نحكيها لأحفادنا تاريخا من الود والعطاء يبقى فى الضمائر أنداء ، شعرا وقيثارا

لقد انطلقت فى الكتاب أضمن العشق المختلف كل مامر علىّ من مواقف رائعة مازلت أحيا بها ولها ، هو معين لا ينضب أبدا ، وبورك الكتاب حينما وضعت بين دفتيه السيرة العطرة لسيدة الطهر مريم العذراء عليها السلام ، وأم العواجز السيدة زينب رضى الله عنها ، بورك الكتاب بالحديث عن رأس الكنيسة القبطية البابا شنوده الثالث (نيح الله نفسه) والبابا تواضروس (بارك الله فى قداسته) وعن فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب (أطال الله عمره) ، البابا شنوده الثالث الرجل الوطنى والذى استحق لقب «بابا العرب» لموقفه الثابت والرافض لزيارة القدس طالما جنود الاحتلال يستبيحون حرمتها ، المسجد الأقصى وكنيسة القيامة صارا مرتعا للمستوطنين ، قال قداسته : إن المسيحيين لن تطأ أقدامهم المدينة المقدسة إلا مع إخوانهم المسلمين يدا بيد ، البابا شنوده كان أديبا وشاعرا ، معلم الأجيال الذى بكاه المصريون ، وبكته أيضا كل المدائن والحقول .

على جسر النُبل فضائل كثر

وطويت آهاتي بإصدار كتاب العشق المختلف، فهل كان نجاحه كما قال النقاد يعود إلى صفاء الكلمات التي سكبت فيها الرحيق ؟ أم لأنه جاء حائط صد فى ظل ظروف تموج فيها البلاد بالإرهاب ؟ إذا كان كذلك فيقينى أننى لم أعد أبالي بالخوف من الغد ، فليمض الزورق في جوف الموج ، فلا مفر من المجداف وإن تكسر بعضه ، لكننى أرى أن نجاح الكتاب الفضل فيه يعود إلى رسول المحبة مولاى الطيب ، من يلتئم به الجرح ، من ينفض عن العيون غبار الظلام ، سوف أستعين بالمجلدات والأحبار أضمنها أولا أننى كلما

التقيت مقامه الرفيع ، حلقت فى لهفة الغريب المشتاق للوطن بعد ألف عام كالنورس الفضى أطير فى كل الأرجاء ، يملؤني إحساس الرضي والسكينة أجوب وادى الفرح ، أما الجداول فتصير أكثر بهاء ، بالروعة السماء والقمر منتشيا يفرد نوره على كامل الأرض ، عذب كلماته ، اهتمامه ، تواضعه ، سمو روحه ، سحر بيانه ينطق بالحق ، أما العصافير فلها أيضا نصيب حينما تتجمع فى فضائه فى ظمأ للأضواء وعزف السواقى ، نعم كلما التقيت الطيب تطيب لى الحياة .

اللقاء الأول:

ويظل اللقاء الأول المفعم بالنبل والرقي يسكب في روحي الألق، لقد خص الله الإمام الطيب بشخصية جادة لكنها جدية المسئولية والمنصب الرفيع ، أما بشاشته فلا تخطئها العيون ، الإمام الطيب يحمل بين جوانحه قلب ملاك بحنو شفيف يمنحك البهجة ، فلا تملك إلا التضرع لله «عز وجل» ألّا يمر الوقت بسرعة البرق فلا تحرم من شدو البلبل ، وأن تظل أبد الدهر فى معية أهل الجود والكرم.

ومع كل لقاء أتذكر هذا المقطع من كتابى «جزيرة السلام» والبداية مع حرف الألف أولى حروف الطيب : (أقبل على الدار ، أقبل هذا الجدار وذاك ، أمضى حيث الطيب الأصيل ، على محياه الممح ابتسامة ربيع ، من ثغره الحنون كل الحروف منتقاة ، أقبل على الدار فأعشق الضاد ، أنسج من عبير المسك شلالا طيب الأشعار)

نعم عشقت الدار ، الردهات الممتدة ، الأعمدة والجدران المنقوشة بالأبيض والوردى ، الأخضر والسماوى ، الأطياب من المسك والعنبر يبقى شذاها فى الأعماق ، تنعش روحى وتقينى وحشة الأيام إلى أن يحين اللقاء الجديد ، لقاء كان مميزا ذاك الذى قلت فيه يامولاى : مريم توفيق للجميع إسما وعطاء ، شاركت بكلمات رائعات عن الرسول الكريم (عليه الصلاة والسلام) فما سر السعادة التى غمرتنى حينما فاجأت الحضور بأننى من قوم عيسى عليه السلام ؟ وجاء رد مولانا مقتضبا : سجلى القصة بكل تفاصيلها الآن لتبقى نبراسا لأجيال الشباب شفاء .

هتفت روحى بالفجر الضحوك فقلت : طلب مولاى لا يرد ، ومضيت بالتواريخ أجمع كل المواقف الحياتية والرسالات التى جاد بها الزمان ولم تزل تعبق فى أسمى ذراها ، منذ نعومة أظفارى وحتى مجىء أحفادى ، أجمعها فى هذا الكتاب لتكتمل الصورة بغلاف رائع، علم بلادى ونسر فى العلا ينشد :

أنا إن قدر الإله مماتى　　　　لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدى

هرم ونيل وغصن زيتون ، وكلما ناقشت العمل كان إلى جوارى دوما كنزا من كنوز الأزهر الشريف ، فيضا من الحكمة منهجا وعطاء، علما ونبلا ، للتأكيد على عميق حب الله ، فحب الناس والأوطان من محبة رب الوجود .

يا مولاى ماذا عساى أن أقول عن مقامك الرفيع ، لم تعد تكفى كلمات الثناء لشخصكم الكريم ؟ نشرتم على صدر الزمان روح الملائك ، على هدى الرسول الكريم تسير ، منحت من مكارم الإله نهرا ، ياعيون الوفاء عهدناك الجوهرة النادرة ، أهداك الله من نور البصيرة سرمدا ، فليبارك العلى القدير فى آل الطيبين ، فأنتم نور القلوب وطيف النعيم ، يا قبلة من يبغى السلسبيل .

لقد غمرنى فضيلة الإمام الطيب بكرم عظيم ، فها أنا ذا أستند على جبل أشم لأكمل ما بدأت من أجل السلام ، ولا شىء إلا نشر التسامح بين الأديان ، ووفاء منى للطيب سطرت هذه الكلمات من ذوب قريحتى :

(جاء غيثا يحمل الوعد نديا

راويا قصة حب رائع الوصف نقيا

صوت حب يملأ الكون صفاء

جاء فجرا يحمل الآمال عنقود ضياء
جاء فى موعده المأمول روضا
من زهور الحب جاء
جاء كالأحلام يحوى كل آيات الوفاء
وبه أصبحت فى الدنيا على الدنيا نبيا)

الأربعاء يا بسمة الأزهار

لا أنكر أن سحر « القرنة » قد أغوانى بالزيارة على متن بساط الريح ، أستلقى على الأغصان الندية، أمتع ناظرى بحنان النيل ، فالقرنة مهد الطيبين ، سوف أعرج أولا على معبد الكرنك ، الدير البحرى، وادى الملوك ، متحف الأقصر الحديث ، وليكن مسك الختام بيت الإمام ، كم اشتقت للأهل، أحن للأماكن الساكنة بالفؤاد ، أحن للكروان ، للعصافير التى أحسدها على نعمة التحليق حول البيت العريق ، أحن للقهوة من صنع أولادى ، أحلم بلقاء على متن السحاب .

وبإرادة رب السماوات تحققت الأمانى ، وكان لقاء دندن فيه الفجر قصيدة ، فغدت فى الصبح أنوارا فريدة ، يابسمة الأزهار في صباح الأربعاء قرأت وجه مولاى فى رحيق الشمس يشرق بالحنان، فماذا عساى أن أخط من قصيد والألق القدسى يبهر عينى ، كيوم ميلاد أحفادى

أفضيت لمولانا بخوفى مما يحاك لمصرنا فى الخفاء ، ورجائي من فضيلته بل غاية المنى أن يكون الحديث عن ساحة الطيب بالقرنة هو المنطلق للكتاب الثانى من ثلاثية السلام ، فغزلت من أوردتى(كلمات جزيرة السلام) معزوفة الجمال وشمس أفراحى التى فاق الانبهار بمحتواها كل تقدير ، فقد كُتبت بروح الله ، وروح الله ترفرف دوما حول الطيب إمام الدنيا والدين .

وفي هذا المقام لا يفوتنى أن أنوّه بموقف فضيلة الإمام حينما قدمت له الكتاب قبل طباعته لكى يلقى نظرة على المحتوى ربما احتاج العمل الى تنقيح ، لكننى فوجئت بأن أول مالفت الإمام فى العمل بأكمله تلك الجملة : (فالطيب وحده من يقول عذب الكلم) فجاء اعتراض فضيلته بكل سماحة وتواضع قائلا : ليس الطيب وحده من يقول عذب الكلم ، بل كل الناس من تقول عذب الكلم .

الله عليك يا مولانا ما أسعدنى بفضيلتك ، من أجل ذلك عرفت إجابات كل الأسئلة ، وأولها لماذا أبتهج كلما أقبلت على الدار ؟ ولم أقبّل هذا الجدار وذاك ؟

سأظل مدينة لفضيلته بالفرح الحقيقي ، فقد مُنحت جنة باتساع الكون ، نلت بركة ، ثم ازددت شرفا وفخرا والقلم يخط الحروف النورانية (الألف اللام ، الطاء ، الياء ، الباء).

فيا رمز التآخى والوفاء إليك مجددا تحياتى:

تحيـــة الحـــب والتقـــدير أكتبهـــا	**مـن روضـة الشـعر أهديها إلـى العلـم**
شيخنا الجليـل قد ضـاء الزمـان بـه	**أنـــار بـــالعلم آفاقـــا مـــن الظّلـــم**
أنـــت الإمـــام وإن الكـــون يعـــرفكم	**وروعـة الفكـر فـوق الشّـعر والكلـم**
تظـل تعطـى عطـاء النهـر فـى كـرم	**حتـــى سـموت سـمو الطَّـود للقمــم**
تحيـــا بجهـــدك أجيـــال تعلمهـــا	**يبقى عطاؤك نـور النـاس والأمـم**
ألبســـت تاريخنـــا حلـــلا ملونـــة	**وروعـة تنتشـى مـن شـيق الـنغم**
إنـــى أتيتـــك بـالأفكـــار أرســـمها	**شـعرا مـن القلـب يعلـى شـامخ الهمـم**
أهـديك يلسـيدى مـن نـبض مـوهبتى	**وأنـــت بحـــر الوفـــا والحـــب والكـــرم**

الطيب روائع الكلم

كنا على شاطئ الانتظار إلى من فى القلب موئله ، نشتهى كلمات ذهبى الفم المحب لمصرنا ، العاشق لكنيستنا الأرثوذكسية وأزهرنا الشريف ، راعى السلام فى كل الكون ، نتوق لزيارة عز طلبها ، ليبارك وطنا نمت عبر القرون على أرضه أديان كل الأنبياء ، البابا فرنسيس بابا الفاتيكان ، الإنسان الذى حباه الإله «عز وجل» نعمة القبول ، صمته كلام ، وكلامه ندى ربيع وأغصان زيتون، فسرعان مايستقر فى الوجدان ، فمحبته الفائقة وثغره الباسم جعلا منه الإنسان الذى أحبه العالم فى كل الربوع ، أحبه البيض والسود ، الفقراء والأثرياء ، الأحرار والمقيدون، الأطفال والشيوخ، نصير المستضعفين

والمحرومين ، يجوب البلاد بحثا عن المشردين والمحتاجين للعطف والأمان .

البابا «فرنسيس» اسم جهير فى عالم نصرة المظلومين ، هاهو يأتي فى الموعد المعد سلفا ، وكنا نتشح بالسواد من الإرهاب الذى أطفأ فرحة أحد الشعانين ، ولم يستمع لنصيحة المسئولين بتأجيل السفر إلى أرض المعز ، فالأمان فيها مفقود ، لكن إيمان قداسته بأن يد الله على الدوام ستحميك يا مصر ، وقال : إن أم الدنيا في أمس الحاجة للزيارة المباركة ، فراح يبارك أرضها ونيلها وشعبها الأصيل، صلى من أجل سلامها وأمانها ، وأقام القداس الذى حضره المصريون ، وكان مؤتمر السلام الذى أقامه الأزهر الشريف خير دليل على مد جسور المحبة والوداد من أرض السلام ، وكان العناق بين قداسته وفضيلة الإمام «الطيب » من القلب أبلغ رد على داعمى الفتن والإرهاب الذين يسعون للنيل من وحدة الأديان فمضوا بالأكاذيب يقسمون دخول الجنة والنار حسبما يرون ، هفت القلوب للصورة المشرقة بين قطبى التعايش بين الأديان ، زيارة كللت بكل جميل ، ضمدت جراحا نهشتها الذئاب هدأ البابا من روع أهالى الشهداء الذين حرموا من ذويهم ونحن على مقربة من عيد القيامة المجيد ، خفف من آلام المصابين ، أما أنا فكنت أتابع الزيارة لحظة بلحظة ، أتوق لمقابلة قداسته لأقول : ياسيدنا مصرنا فى العين وفوق الجميع ، نفديها بالروح والولد ، فليطمئن قلبك أننا فى رباط إلى يوم الدين ، نصون هويتنا ووحدتنا ضد الطامع والغاصب

أرضنا التى استقبلت السيد المسيح وأمه مريم ويوسف النجار هربا من بطش الملك هيرودس ، يد الله تظللها ، عرفت بين إخوتى المسلمين الحنان والشهامة ، الأصالة طبع فينا منذ القدم ، عم مصطفى وأبو أحمد ، الأبلة أسماء وزينب جارتى ، الجناينى مؤمن ، رمضان حارس الحضانات الأمين على مريم الصغيرة ، مازالت بصماتهم فى الدماء حنونة ، لن تمحوها القرون ، «فايز جعفر» الصديق والأديب ابتاع من أجلى الحمصية والسمسمية والدوم لنعيد الماضى الجميل برابطة الأدب الحديث ، منال أهدتنى مسبحة وسجادة صلاة ، أوقدنا سويا الشموع للبتول ، مررنا بالحسين ندعو لأولادنا بالرفاء والبنين .

ياسيدنا .. كن مطمئنا على الدوام ، يشهد التاريخ أن المصريين فداء لتراب أرض الهرم والأديرة والكرم والمئذنة والصلبان ، ثم أختم كلمتى ياسيدنا : هذا الصرح العظيم منارة لسماحة الإسلام ، هنا عالم جليل فى رقة النسيم ، أول من يهنئنا بالعيد ، للحكمة عنوان ، بدأت خطوة من أجل السلام فمد الإمام يديه يدفعنى للأمام ، إنه شيخ الجامع الأزهر الدكتور «أحمد الطيب» .

كنت أدرى أن حلمى بمقابلة قداسة البابا أثناء زيارته لن يتحقق رغم نبل المقصد ، لكنى قررت أن يكون هناك كتاب عنوانه : (كلمات فى أرض السلام) فلا أحرم من البوح بالمزيد وإن كان للأوراق ، لن أتوانى حتى تكتمل ثلاثية السلام فأرضى ضميرى تجاه أمتى ، أزرع سنبلة بماء الزهر ، أرويها فنحصد غرسها ولو بعد حين ، ذلك أفضل جدا من السكوت أو(السير جنب الحيط) .

ورحت أقدم العمل لمولانا من جديد ، ربما كانت هناك رؤية مختلفة خاصة ما يتعلق بعلاقة الأزهر الشريف مع الفاتيكان ، ليفاجئنى فضيلته : يا مريم كتاب قداسة البابا لن أتدخل فيه على الإطلاق فاسطرى ما تشائين فمن المعلوم أن المفردات التى كتبتها لإمام السلام حتما ستختلف عن مفردات بابا السلام ، وأصبحت مع كل لقاء بفضيلته أرى أن روائع الكلم والزهر كله لن توفيك حقك ياطيب .

النادر الوجود

وباتت الكتب الثلاثة بين يدى ،عناوين تفيض بالرقة والعذوبة ،أغلفة بألوان قوس قزح ، ملمسها كخد الورود تفوح بالعبير ، المحتوى خبز وملح ، حلو الرواء من زمزم .

ورحت أقدم لفضيلة الإمام كتاب : (كلمات في أرض السلام) لتكمل لدى مكتبة الأزهر الأعمال الكاملة لى ، وبرغم سعادتى بهذا اللقاء إلا أنها سعادة خالية من الوهج ، لا تمرح فى عمق روحى ، ولا تأخذنى للنبع الصافى ، فالمهمة أنجزت ، ولم يعد هناك من حجج لأقبل مجددا على دار الفرح ، سأظل أسيرة الشعر والنثر ، فكم أحتاج من الوقت لأنسج من بستان الأشعار قلائد جديدة ؟ مازال

عيد الفطر بعيدا ، وكذلك المولد النبوى الشريف ، فى هذا اليوم آثرت أن أذهب مبكرا ، أحاول أن أعب قدر المستطاع من الأريج ، أجمع من شهد اللقاء ما يعيننى حينما أمضى كالطير الغريب يعاودنى الحنين لركن نسجت منه أحلامي فألتقط الصور والتذكار ، بكل لهفة أحدث الأماكن ، أبثها شوقى وعظيم امتنانى ، أقول فيها يامواسم البهجة والنضارة ، ياموطن الحسن ودار الرياحين ، سيظل التواصل بيننا دون انقطاع ، نجدد الأشواق على الضفاف يانيل ، ونستحضر الأنوار فى رحاب الإمام حاولت أن أحبس دمعى على الرغم منى ، فكم جلست هنا أتأمل فنجان قهوتى المستقر على شرفات الغمام ، على يمينى المصباح يهدينى الطريق وعينى على الخضار الممتد فى الطرقات يطوف بى نحو جنات تجرى من تحتها الأنهار .

أستمتع بسحر الانتظار ، فما أروع الوصل بعد عناء ، هنيئا لروحى ترى الحمام المضيء وشمس الأصيل ، هنا تأملت نقوشا تزدان بفكرى ، من هذا الباب اجتزت حد السحاب ، أسعد بالخميلة ونقاء السريرة ، أبطىء الخطو نحو سوسنة الوادى ، فأنعم بلحن الروح يسرى هادئا يسكب الفرحة بالفؤاد ، من هذا الباب قدمت التهانى وأحلى الأمانى يامولاى وفى سجل الزيارات كان دعائى لله عز وجل : يارب احفظ لنا من خلقت فيه الإنسان ، يارب احفظ وبارك لنا هذا المكان ، وكم تمنيت أن أقف بنهر الطريق وبين يدى لافتة من ثلاث كلمات (هنا إمام المصريين) فيطالعها العابرون ، يتعجبون ، يتهامسون ثم يسألون عن مقصدى فأجيبهم :

أنا لا أحسدكم بل تتملكنى نوازع الغيرة منكم ، كم تحايلت ومازلت أحايل الظروف لكى أقتنص من السعادة بعضا ، فأهلل للزمان السعيد الذى أهدانى تاج الماس والعقيق ، اللؤلؤ والياقوت ، فلتلتمسوا لمريم العذر ، لى حق وحق وحق ، لى ماشئت من الفرح، فمنذ عشرة أعوام كنت هنا ، فى مروج الروض كان اللقاء أجمل من لثم الورد ، أروع من بسمة ساحرة من سهيل ، حين أقبلت على الدار عرفت معنى الحب .

اللهُ الحنَّان

بمكتبه العامر بالنسائم ، أهديت كتاب بابا السلام إلى فضيلة الإمام ، الحيرة تملكتني والارتباك رافقني ، فتقديم واجب الشكر لمولاى على حسن صنيعه من أجل السلام لن يستغرق أكثر من دقيقتين وبعدها أستأذن بالانصراف ، ياربي .. رفقا بقلبي فأنت تدرى بما فى النفس من شجن ، تدرى أننى سأحرم من لقاء بشير المنى ، أحرم من بهجة الانتظار فى الخميلة ، كأن صخرة هبطت على رأسى أفقدتنى الكلام ، كأن فصولى مابين هجير وخريف وشتاء أحدق فى الكواكب ، أسأل النجمات ماحيلتى وأنا معلقة بين السحاب والجبال ؟

ياربى ..لا تجعل خطوتى اليوم نحو الشاطىء المهجور ، هيىء لى من الأمل بارقة لفجر أيامى ،

ألهمنى عذب القوافى، مولاى.. الوجه البشوش، أغلى الجواهر، وأغلى الكنوز.

ومددت يمينى بالكتاب ويالها من كلمات صنعها الرب على لسانى حين قلت : مارأى مولانا إذا ترجمت ثلاثية السلام إلى الإيطالية فتحملها مريم المصرية رسالة سلام من الأزهر الشريف إلى قداسة بابا الفاتيكان ؟ كم نحن أحوج من أى وقت مضى إلى نشر قيم التسامح النبيلة التى يبشر بها الطيب وكل طيب ، فما قيمة أن أحيا وأفنى والشعر فى صدرى لم أخرج سطوره ؟ تعلمت من مولاى كيف أطوع البحور وأجعل الأحرف الصماء عطرا يشتهى الناس عبيره .

وجاء الجواب مفعما بالرضى ، فرنمت لحنا لبلادى عذب الصدى ، استعدت حلمى الأخضر عندما قام مركز الترجمة بالأزهر الشريف بالبدء فى ترجمة كتب السلام لتبقى فى ضمير العالم عنوان المحبة من أرض السلام .

اللهُ الحنَّان أبى أن أغيب عن الدار كثيرا ، فمازالت هناك فرص جديدة أعاود فيها الربوة المقمرة ، الله القادر على كل شىء يدرى أننى أخلصت النية لرسالة الحب الأزلية .

وبات الأمل يراودنى فى لقاء قداسة البابا فرنسيس ، الآن بإمكانى البوح بما يدور بخلدى ، فالمستحيل عند الإنسان مستطاع عندالرب.

فى البدء كان الفرح

غادرت دار الجمال بالجسد ، وعند المساء أوحت النجمات للبدر مؤنسى وكاتم أسرارى أن هناك خبرا جميلا ، فبات عليه أن يأتى علي عجل .
- ماذا تخبئين يامريم إنى أراك اليوم ترتادين الجداول ، تنتشين بالعشب السندسى ، تتلهفين يانوارة الروح للقائى ؟

-هنئنى ياقمر ، أشعر بالغبطة والسرور وكأنى ملكت الدنيا اليوم

- إذن هيا للمداد وأوراق الشجر ، سطرى عذب الكلم .

-لم تسألنى لماذا مضيت نحو الغدير وحقول الفل والياسمين ؟

- أنا وأنت أحلامنا على جناح الصبح تمحو الغسق ، اليوم سكن الحب كل موج وكل غصن ، أنت مريم توفيق ، لكننى أراك أيضا حورية النبع ، عينى عليك جل الوقت ، على قلب ملاك كم تحمل قصف الرعد حتى يبشر العصفور بالغناء واللعب .

- ربما تدرى أننى أمضى مع الفجر فى عناق بين الهوى والقصيد، لكنك لاتدرى أننى أعيش اليوم بالتحديد أروع حلم يتهادى على ضفاف الخلود ، ليتنى أعانق كل الطيور ، ليتنى أجوب الحدائق أضم الفراشات والنجمات وكل الكائنات ، ثم أجمع العشب الطيب فأطعمها شعرا من عالم الحسن ، وأسقيها من روحى ماء الورد.

- كل شىء أدرى يامريم .

- دعنى أقل لك إن طائر الشوق رفرف حولى اليوم ، اليوم رسا القارب على الشط الآمن ، ياقمر باتت أنوارك تدفئنى ، تحتوينى أكثر من أى وقت ، فكم جرت عبراتى تغرق حشو الوسادة ، كم تاه فكرى وأنا أحدق فى الدجى فلا أبصر إلا أغلالا وقضبانا ، أهيم فى دنيا اغترابى بشراع واهن كلما لاح بخاطرى أننى سوف أبتعد عن دار الوفاء .

- إلى هذا الحد يؤلمك البعد عن ظل الشمس ؟ عليك بالصبر .

- ألم تقل أنك تدرى عنى كل شىء ؟

- نعم ياتوأم الروح أدرى ، لكنى أعشق بوحك لأدق التفاصيل التى جعلتك فى سباق مع العصافير ، تجمعين القش لتصنعى من فيض حنانك أجمل عش .

- **ياقمر** : عامان وأنا أنتقى الكلمات في المساء بعدما تهت بجوف الليل ، الخوف من الغد يعصف بالحنايا ، فلا أجنى إلا الشجن وسهاد العيون ، أخشى على قرص الشمس من الأفول ، أخشى على وطنى من الأشواك ، نوح البلابل والأطيار ، حاورت نفسى إلى متى أروم البحار كلما ضاقت بى الأرض بما رحبت ؟ الى متى الهروب من ظلمة الأنفاق ؟ لماذا لا أعزف لحنا يذيب الجليد ؟ وبين النخيل والكروم أسطر أروع الأبيات فتضىء شغاف الفؤاد ؟ لماذا لا أسعى نحو القلب الطيب الرهيف ؟ الى متى أوصد شباكى وبابى أصارع الألم المكتوم ؟ إلى متى لا أبالى بالمجداف والموج يعبث بالزورق الحنون ؟ - إلى متى يامريم ؟

- ألم تكن معى يابدر حينما أشعلنا فراشات القصيدة ، وبساط الريح يتهادى بنا والنسمات تعبق بالعطر ربيعية ؟

- عشت وإياك فى طيبة بدائع آلاء الرحمن ، فالقرنة جنة سندسية ، كل الملائكة تظل سماءها بالتسبيح ، القرنة مهد الطيبين كما هو معلوم .

- ياقمر : فى هذا اليوم الحنون صعدت وإياك قمم الجبال ، تحررت من خوفى ودوامات ضعفى أمام جبروت أهل الشر ، تمردت على السير جنب الحيط ، كفى ماضاع فقد صارت سنين عمرى غابة دون نخيل ، دون شجر، دون ثمر ، صادقت الغروب وكم راودتنى أفكار الرحيل ، اليوم ياقمر انطلقت أفضى للإمام الطيب بما يعتريني من شجن ، فراح يمد خيمة باتساع الكون ليمحو الذكريات المريرة ، فبات اليوم أسعد أيامى

- من أجل ذلك تتقدمين أسراب الحمام ؟

- لا تلمنى ياقمرى فقد حان الوقت لأنطلق كالريح ، كالفارس الجسور أسحق الوحش والتنين ، أهدم بيوت العناكب والغربان فما زالت تنعق إيذانا بالخراب ، أدمّر مرابض الثعالب والذئاب ، كم أثقلتنى الهموم كلما رأيت الهلال حزينا والدمع حبيس الجفون ، إمام المصريين يأبى أن تصاب القصائد بالوهن والإنكسار .

- الطيب هو الأمل ، هو الجسر نحو الفجر السنى ، نحو حياة كلها ربيع ، هو الملهم والفكر المستنير ، فلتنامي ملء جفونك ، احلمى بالغد المنير ، ستظل القصائد فى عمر الزهور .

- ياقمر القادم كله رونق وبهاء ، اليوم فى ساحة الضياء طويت آهاتى مسحت شجو الليالى .

فبعد شهر أو شهرين نسافر وبين يدينا هديل القوافى من الأزهر إلى الفاتيكان .

- سوف أترك خبرا لبساط الريح أن يكون منذ الآن فى وضع الاستعداد ، آه يامريم لو تعلمين مدى تلهفى للنسيم الهامس النشوان ، غاية الأحلام أن أطير وإياك على متن السحاب إلى مرفأ الحنين .

- عذرا يابدر فى تلك الرحلة لن نرتاد بساط الريح !

- هل أصابه مايعوق الطيران ؟

- بساط الريح بخير وأمان، لن يصيبه أى مكروه ، فقد نال بركة آل الطيبين ، لكننى وقعت معه اتفاقا أن يكون الطيران فقط لمدينة طيبة (الأقصر) ، هل نسيت أنك وقّعت معنا كشاهد وأيضا النجوم ؟ مريم لا تخون العهد تحت أى ظرف .

- لن نخون العهد أبدا ياصديقتى ، فلندع بساط الريح يهنأ بالذكريات فى بيت الإمام الكريم ، يرسم خريطة للأحلام وزهر الميلاد الجديد .

- فلنترك الأمر لمن بيده الأمر ، وعند السفر لكل حادث حديث ياقمر .

انتظار

والآن بات علىّ أن أسعد قلبى ، أصالح نفسى ، أمنيها باقتراب الموعد ، فحلمى ستحققه السماء ، وأصبح لزاما علىّ أن أطرد من حياتى شبح التوتر الذى أطفأ القناديل ، فماذا جنيت من جلد الذات والندم على مافات ؟ فما أقسى الشعور بالتقصير نحوك يا وطن ، سوف أعود إلى روائع موسيقى «بيتهوفن» «موتسارت» و«شوبان»، شدو عبد الوهاب (يانسمة الحرية) و(الوطن الأكبر) كوكب الشرق ورائعة شاعر النيل «حافظ إبراهيم» (وقف الخلق) وتحت ظل النخيل أدندن شمس الأصيل ، أتأمل عشق النوارس للبحور ، أداعب الموج ، أستلق فى الشمس ثم أقطف زهور النرجس والقرنفل والياسمين أهديها لكل البشر دون تمييز.

يارب يسر أمرى ، أنت تعلم أننى لا أبغى إلا الخير بل كل الخير يا وطنى ، وفضيلة الإمام «الطيب » لم يأل جهدا من أجل مصر وأجلى، سوف أستعيد جميل الذكريات فى المدن الإيطالية التى زرتها عشرات المرات ، تلك المدن التى مازال صدى عشقها محفورا بأعماقى ، فبرغم أننى زرت معظم الدول الأوروبية لكننى أرى إيطاليا الساحرة ماهى إلا قصيدة حب وصلاة . شعب ودود يشبهنا شكلا وسلوكا ، كلما تجولت فى شوارعها رأيت المصريين إما سائحين أو عاملين بالمتاجر المختلفة ، فتذهب عنى مشاعر الغربة ، الشعب الإيطالى شعب ودود عاشق لأرض الخلود ، يثمن حضارتها ومكانتها على خريطة الكون على مر العصور .

روما:

عاصمة الجمال روما ، أول مايلفتنى إليها تلك المعالم الأثرية والتاريخية العريقة التى جعلتها أحد أهم المدن السياحية فى العالم والأكثر جذبا للسائحين

الكولوسيوم :

وهو رمز من رموز روما قديما وحديثا ، ويعتبر من العجائب المعمارية والهندسية ، عبارة عن مدرج رومانى يقع فى منتصف روما، هذا المدرج يعد أكبر الهياكل الباقية من إمبراطورية روما العريقة ، يحتوى على أربعة طوابق من النوافذ والأقواس ، أما ارتفاع المدرج فيوازى ارتفاع عمارة من خمسة عشر طابقا ، يزوره نحو مليونى سائح من كل أنحاء العالم ويتسع لأكثر من خمسين ألف متفرج ، وكان فى الأصل يستخدم لإقامة مسابقات المصارعة ، والتى تقام بين المصارعين والحيوانات المفترسة كالأسود .

أما أشهر نافورة فى روما فهى نافورة «تريفي» والتى تسمى أيضا نافورة الأمنيات ، فقد بنيت بأمر البابا «كليمنس الثاني» وبناها «نيكولا سالفى» وتعتبر مزيجا رائعا للهندسة المعمارية وفن النحت ، وفى مركز النافورة نحت إله البحر «نبتون» وقد ركب عربة على شكل صدفة تسحبها مخلوقات بحرية بين الصخور ، والمياه يحيط بها إله الصحة وإله الخيرات .

سميت بنافورة الأمنيات لأن الاعتقاد السائد أن من يدير ظهره لها ، ثم يلقى قطعة معدنية من النقود ستتحقق أمنياته ، ويعود لروما مستقبلا ، بالتأكيد أنا لا أؤمن بهذه المعتقدات لكن من باب المشاركة والتقاط الصور بحثت عن موطىء قدم بين السائحين ، وقبل أن ألقى باليورو فى الماء سألت نفسى : ماذا أتمنى ؟ فوجدتنى لا أتمني إلا أن تتم مقابلة قداسة البابا على الوجه الأتم فأعود إلى بلادى وقد حققت شيئا طيبا ، وذكرنى هذا الموقف بقولنا المأثور : أن من يشرب من ماء النيل لابد وأن يعود إليه ليرتوى من جديد ، فلابد للمتعبين من دار محبة يدخلوها بسلام آمنين .

معبد البانثيون :

أو معبد الآلهة وهو من أقدم الهياكل فى روما ، حيث بنى لجميع الآلهة وعددهم اثنا عشر إلها من الآلهة الأولمبية ، بنى هذا المعبد بأمر من قنصل روما «ماركوس أغريبا» فى عهد أوغسطس وأحرق بعد ستين سنة من بنائه ، ثم شيد مجددا بأمر من القيصر «أدريانوس»، وحفر أسم «أغريبا» على الهيكل تكريما له بأمر القيصر «أدريانوس»، واستخدم كمحكمة للإمبراطور «دوميتيان» بعد فترة من الزمن ، وبعدها تحول المعبد إلى كنيسة باسم «سانت ماريا» وهى المرة الأولى التى يتحول فيها معبد آلهة إلى كنيسة ، والمعبد يتخذ شكلا مستديرا وتم ثقب السقف لتعبر منه أشعة الشمس .

حمامات كراكلا :

وهى ثانى أكبر حمامات رومانية عامة ، وتقع فى جنوب شرق مدينة روما وتعتبر من أهم الآثار ، حيث تم بناء هذه الحمامات فى القرن الثالث الميلادى ، وتمتاز بأنها تتسع لقرابة ألف وسبعمائة شخص يستخدمون المياه الباردة والدافئة والساخنة ، وهى عبارة عن غرف صغيرة ذات قباب عالية وتحتوى علي ثلاث (برك) مختلفة، ويوجد بالقرب منها العديد من الحدائق العامة رائعة الجمال والمكتبات التى يضم أهم الكتب فى العالم

نابولى:

المدينة الساحرة ، أجمل الموانىءالتى تقع فى جنوب إيطاليا على بعد مائتين وخمسين كيلو مترًا من روما ، زرتها فى رحلة بحرية لدول حوض البحر المتوسط بباخرة عملاقة ، إنها مدينة الفن التى تشهد على ذلك أبنيتها وكنائسها ، ومنها كنيسة «سانتا كيارا» التى تعتبر جزءا من مجمع دينى كبير يضم الأديرة الجميلة المرصعة بالخزف المصقول والبلاط المزين واللوحات الجدارية ، وأيضا كنيسة «سان لورنزو ماجورى» والتى تعود الى العصور الوسطى ، وفيها شاهدت بقايا الآثار اليونانية والرومانية .

أما المتاحف فتفوق الخيال وأشهرها متحف «دى كابويمونتى» والذى يتميز بمجموعة هائلة من الفن الزخرفى واللوحات الثمينة لتيسيانو وكارافاجيو، وعمالقة الفن الإسبانى والهولندى ، تلك اللوحات تعود الى القرن الثالث عشر ، بالمتحف أيضا الأعمال الهامة لأشهر الفنانين مثل سيمون ، مارتينى ، رافائيل ، وتيتان ، ويعتبر متحف الآثار الوطنى من أفضل آثار العالم اليونانية والرومانية بما يحويه من الفسيفساء الرومانية والتى مازالت تحتفظ بجمالها حتى الآن ، وأيضا الأحجار الكريمة والزجاج والفضة ومجموعة المنحوتات التاريخية ، ومن أشهرها تمثال «أفروديت»

ساحة «بلبيشيتو» والتى تعتبر مركز نابولى الحديث ففيها كنيسة «سان فرانشيسكو دى باولا » وهى كنيسة ضخمة على شكل قبة ، أما القصر الملكى فيعد متحفا حقيقيا يضم مقتنيات نادرة من الأثاث ، تجولت فى أرجاء الأجنحة الملكية ، وزرت الحديقة المجاورة والتى شاهدت فيها كل مايبهر العين والروح ، سحرتنى نابولى بشواطئها الخلابة ، رصيف المشاه الطويل الملاصق للبحر ، والذى يعج بالمحلات التجارية والمطاعم الرائعة التى تشتهر بكل خيرات البحر بنكهة إيطالية مميزة ، لكن ذلك لا يغنى أبدا عن عشقى للبيتزا التى تداعب خيال كل من يزور إيطاليا ، وفى الرصيف البحرى مكان اشتهر بأنه يجتذب العشاق الذين يذهبون إليه ليعلقوا أقفالا صغيرة مغلقة بالمفتاح ، ثم يلقون بالمفتاح إلى البحر تعبيرا عن دوام الحب ، فى هذا المكان قفز إلى ذهنى صوت الكروان ليلى مراد باللحن الساكن بالوجدان (الحب جميل للى عايش فيه) ورائعة ثومة(الحب كده) .

أعلنت اليونسكو أيضا أن مدينة «نابولى» هى موقع تراث عالمى قديم ينعكس على الأماكن والمبانى والفلكلور ، والتى تستقطب السياح من كافة أنحاء العالم ، من أشهر معالمها (شهر آيار للنصب التذكارية) وأيضا القلاع المميزة مثل قلعة «ماسكيو» وقلعة «دلاوفو» ومعناها قلعة البيضة وهى جزء لا يتجزأ من مدينة «نابولى» والتى شيدها النورمانديون عام ١١١٥م فى شبه جزيرة ميجارايد .

كم شعرت بالحيوية والانطلاق والرغبة في الاستكشاف وأنا أجوب كل الأماكن ، إنها مدينة تجمع فى طياتها جميع التناقضات ، التقليدية والمعاصرة فى شوارعها المكتظة وجدت نفسى محاطة بالطابع العربى فاعتقدت أننى مازلت فى بلادى.

فيرونا:

إنها مدينة الحب ولا شىء غير الحب ، التى تستقبل الآلاف من السياح لزيارة معالمها التاريخية والأثرية والفنية ، اشتهرت عبر التاريخ بكونها مسرحا لأحداث رواية شكسبير الشهيرة «روميو وجوليت» ، المدينة التي يرتادها العشاق ليضعوا أمنياتهم أمام بيت جولييت ، الذى بنى فى القرن الثالث عشر ، ويقع فى وسط المدينة ، وأجريت له العديد من الترميمات فى العصر الحديث لاستقبال السائحين ومنها : إضافة العديد من النوافذ والأبواب وشرفة جولييت التى تطل على ساحة المنزل والتى كانت تجلس عليها ، ومنها بدأت قصة الحب بينها وبين روميو ، ويتوسط المنزل تمثال برونزي لجولييت من صنع الفنان «نيرو قسطنطينى» وبالمنزل متحف صغير فيه العديد من المعروضات والتحف.

والكلام عن مدينة الحب الضحوك يملؤنى بالسعادة ، تلك المدينة التى كنت أحلم بزيارتها لروعتها ، وكم شكرت مشرف الرحلة لأنه أدرجها ببرنامج رحلتنا وأبهج قلبى ، لكن مع الأسف الشديد فى اليوم المخصص للزيارة فوجئت بأن أعضاء الرحلة بلا استثناء يبدلون رأيهم ، فقد ارتأوا أن قضاء اليوم بفينسيا هى الفكرة الأفضل بالنسبة إليهم ، لأن التجول بين أروقة العشق والغزل ماهو إلا مضيعة للوقت ، وكأنهم ارتأوا أنهم باتوا تماثيل مهملة لاروح فيها أو جمال ، مما أصابنى بالصدمة وخيبة الأمل ، فهل جميعهم لا تعنيهم شرفة جولييت ولا طريق الغرام ؟ جميعهم لا يحمل بين جوانحه أى ذكرى لحب قديم أو جديد ؟ كنت أعتقد أنها مناسبة رائعة للأزواج والزوجات يعبرون فيها عن عميق محبتهم باستعادة حلو المواقف

أما مشرف الرحلة فقد انتابه الخجل الشديد ، وكأنه يعتب على الزمن الذى شوّه الحب كله ، كان يعتقد أنه بزيارة «فيرونا» يجدد فينا شباب القلوب فيحلو الزاد والزواد ، ورغم إشفاقى على قلوبهم التى تحجرت ربما بفعل القسوة والحرمان من لمسات الحنان ، أو الشعور بالعجز عن الهمس بالكلمات التى تصب رقراقة فى الآذان ، أنا لا أدرى السبب بالضبط ، إلا أننى قررت ألا أتنازل عن حقى فى مشاعر مازالت تنمو بداخلى ولا تبرح نبضى ، والفرصة اليوم سانحة علىّ أن أقتنصها ، وألا أحرم نفسى من الاستمتاع بالغرام والهيام بين العشاق الصغار و العشاق الكبار ، وإن كان ذلك بأثر رجعى وفى آخر الدنيا ، لن أهد أحلامى لتموت بداخلى القوافى ، وأمام إصرارى على تنفيذ برنامج رحلة هذا اليوم كاملا ، لم يجد المشرف بدا من مرافقتى وحدى وقضاء اليوم بفيرونا وافترقنا على أمل اللقاء مع الزملاء على العشاء بالفندق فى نهاية اليوم

يا الله ما أسعدنى ، سأتجول بمفردى بمدينة الحب ، أعيش يوما بكل العمر ، وما إن لاحت بالأفق «فيرونا» حتى صارت الشوارع لوحة حب كبيرة مزدانة بالقلوب البيضاء والحمراء ، أرفف المحلات تعج بالهدايا التذكارية الميداليات والبطاقات ،الأكواب والفناجين والملابس القطنية وقد طبع عليها قلب واسما أشهر عاشقين فى التاريخ : روميو وجولييت ، أما الموسيقى فرومانسية ناعمة ، تطرب مسمعى ، تنقلنى إلى القمر والنجمات الدافئات ، موسيقى تجلو الأعماق ، تدغدغ المشاعر وتسمو بالأرواح ، كان على أن أتوقف لأبتاع لنفسى فنجانى قهوة رغم أننى مع كل صباح أصب فنجانا واحدا ، فلدى طقس كلما سافرت إلى أى دولة لابد من شراء فنجان قهوة يذكرنى بالمكان ، والآن أصبحت أمتلك أعدادا هائلة من الأقداح تحتل مساحة كبيرة فى دولاب الفضية .

اشتريت أيضا صحنا جميلا لجولييت وهى تطل من شرفتها بانتظار حبيبها ، و(تيشيرت) بقلبين لحفيدتى مريم التى تشبهنى فى حب الورد والموسيقى ، وطلبت من المشرف أن يلتقط لى بعض الصور بعدما أصعد إلى شرفة «جولييت» كما يفعل العشاق ، طالعت السماء وتأملت من حولى العالم الرحب ، درت ببصرى ربما ألمح رهوانا يشير إلىّ ، لكن الأمس كاليوم يامريم ، فروميو لم يظهر بعد ، لكن لا بأس سوف أحاول أن أخلق لنفسى ولو كان بالخيال جوا من البهجة والفرح .

وما المانع إذا شاركت العشاق فرح اللقاء بالحب اليوم ؟ خاصة عندما تتشابك الأيدى ، أو عند خطف قبلة على الخد ، وعند اقتسام قطعة من الشيكولاتة بنظرة عين تخترق أسهمها الأفئدة المتيمة ، الآن بات علىّ ألا أنتظر ، أنشد راحتى حين أبتسم فى وجه كل البشر ، فلغة الود والعطف طوق نجاة للقلوب التى تهفو للمطر .

تركت بيت الهوى وكان إيذانا لصدرى بتصاعد الزفرات ، أحلم بالصب يصُب لى شهدا فى دوحة الأنوار ، أحلم بخفقة الفؤاد رغم الغيوم فمتى أغرد للبلابل ، متى أداعب الأقمار والنجوم ؟ وقررت أن أحيى النبض فوق الجبال فيشرق فى وجهى الكون ، أسقط من دفترى كل قصيدة أبكتنى وحرمتنى متعة الحياة ، أنادى كل غصن غدا أصب بالورق (من وحى الحب).

ثم أكملت يومى بزيارة «مسرح أرينا الرومانى» ، وهو صرح معمارى من أفضل المسارح الرومانية للشعر الغنائى وأكبرها بالعالم، يتسع لما يقرب من خمسة عشر مشاهد ، وتقام فى هذا المسرح العديد من عروض الأوبرا فى فصل الصيف ، ثم «برج لامبيرتى» وهو البرج الأطول فى «فيرونا» ، ويمكن الصعود الى هذا البرج ، وإلقاء نظرة عامة على المدينة ، ويقع برج الجرس فى أعلى هذا البرج على شكل ثمانى الأضلاع ، واختتمت اليوم بالترجل فى «الحديقة العامة» التى تتجمل بالمسطحات الخضراء والنوافير يتوسطها تمثال للملك «فيكتور الثالث» .

انتهى يوم الغرام لكن لم ينته الحب بقلبى ، وعند العشاء دارالحوار :

- فاتك نصف عمرك ، فينيسيا مدينة تفوق فى الروعة كل خيال ، أما ندمت على يوم قضيته بمفردك ؟

- أين تهرب منى فينيسيا سأعاودها يوما ما ؟

- كنا على حق عندما تجولنا بالقوارب فى المدينة العائمة ، متعة غابت عنك يا مريم .

- فى حضرة الحب متعتى لا تقدر أبدا بثمن .

- قابلت اليوم روميو أم جوليت ؟

يا رفاقي حنانيكم .. فكل ثنائى نقىّ ترجل أو علي الفنن ، رأيته يعزف الحب ألحانا ، عشت بفردوس النعيم أغاريد عشق للقصيدة ، سيظل اليوم عالقا بالذكريات ، لا تتعجبوا إن قلت لكم إننى «جولييت» فى كل وقت ، أجلس إلى شرفتي فى الفجر أناجى رب السماء : ياواهب الحب .. قلبى المشطور يسألك أن تنزع منه الوهن، فمتى أزف البشرى وتكرمنى بسيد الحسن ، نرسم دربا للحلم ، مقعدا للزهر ونهرا للشجر ، ثم نعود سويا إلى بيت السهر ، فى ثوب الورد نغفو على عشب أبيض ، وفى الصبح يقاسمنى روميو الخبز وظل الشمس ، القهوة وشهد الكأس .

يارفاقي .. أتريدون الحق ؟ أسعد أيام حياتى هو اليوم ، وبينما أسترسل فى الكلام فوجئت بأن المكان قد خلا منهم ، من المؤكد أن أوان العشاء قد حان ، كنت مهيئة للاستمتاع بركن البيانو بين الشموع وعزف «سيسيليا» تلك الشابة التي تبهر بفنها الحضور كل مساء ، أعشق البيانو والكمان ، تذوب مهجتى والناى يرسل إشارات الأنين والحنين ، والاشتياق لعهد غرام يستديم ويصدق، يسكب الدمع دفاقا ، يذكرنى بيوم رحيل ويوم تلاق .

فينيسيا:

رحلة جديدة إلى إيطاليا التى أغرمت بها ، وضع ضمن برنامجها ثلاثة أيام بمدينة فينيسيا ، إذن آن الآوان للاشتراك بها فورا ، إنها فرصتى التى أجلتها من أجل عيون «جولييت» وحبيبها ، ولولا إنها تستحق السفر لما دندن لها الموسيقار «محمد عبد الوهاب» رائعة «على محمود طه» : «الجندول»

أين من عينى هاتيك المجالى ياعروس البحر ياحلم الخيال؟

أين عشاقك سمار الليالى أين من واديك يامهد الجمال؟

ثلاثة أيام من المؤكد انها تكفينى للاستمتاع بمدينة السحر والرومانسية مكانها فى شمال إيطاليا ويطلق عليها أيضا «البندقية»، إنها بالفعل عالم من الإبداع والجمال ، تقع على العديد من أجمل القنوات المائية ، والتى تجعلها فريدة من نوعها على مستوى العالم ، هى عبارة عن عدة جزر متصلة ببعضها عن طريق جسور والمدينة تطل على البحر الأدرياتيكى .

جذبتني أبهى المباني والقصور والنوادى الليلية ، الجسور المائية هى شرايين الحياة فى مدينة العشاق ،لأنها تربط أوصال الجزيرة بعضها ببعض ، خاصة الجسور المخصصة للمشاة ، أما الساعات الحلوة فى الصباح فهى الوقوف للتمتع بأشعة الشمس والمنطقة المائية كلها تحت أقدامى ، فالمشهد جعل من الخيال حقيقة ، وعند المساء والبدر مكتمل أقف على ذات الجسر ، أسترجع أعذب الأشعار فتغرينى بالبقاء ، فالشكر لله الذى وهبنا نعمة الإحساس بالحياة ، حلوها ومرها ، وقبل أن أعود أدراجي للفندق لابد أن أعرّج على بعض محلات الهدايا وأهمها منتجات «مورانو» من الكريستال العالى الجودة ، أما روعة ألوان أطقم العقد والحلق والإسورة والخاتم فحقا تسلب العقل ، فاشترى مايروق لى من البنفسج والأزرق والأبيض فتلك الألوان هى المحببة إلى نفسى .

لا أنكر انبهارى بكل ماهو رقيق ووديع يرضى فىّ الأمل الوردى، يجدد فىَّ صباى ، فجمال معمارية جسورها وهندستها وفخامتها ، أشجارها النضرة ، الموسيقى الناعمة تنقلنى إلى عالم ملائكى ، كل ذلك يجدد الأمل للشوق والحب ، أما الجنة فرأيتها فى بانوراما جميلة لمدينة البندقية من أعلى برج الجرس ، «فينيسيا» من أروع مدن العالم والتى ترعاها اليونسكو ، فهى المدينة الثانية بعد روما من حيث ارتفاع نسبة التدفق السياحى ، أما المبانى التاريخية العريقة فتعود إلى عصر النهضة فى إيطاليا .

ومن المعالم التى حرصت على زيارتها ، كما يحرص عليها أيضا كل زائر كنيسة المهد أو الكنيسة الذهبية ، نظرا لأنها مطلية بالذهب الخالص من الداخل ، فقد بنيت فى القرن الحادى عشر الميلادى تحفة معمارية عظيمة ، أما التنقل فى أرجاء «فينيسيا» فيكون بالقوارب والعبّارات ، لم يكن - الحنين - إلى الجندول وحده الذى يقوده البحارة بزيهم المعروف ما يراودنى بشدة ، بل الحنين إلى كل ماتشتهيه نفسى ، الربيع والهيام واليد الحانية تضم يدى ؟ لم أشأ أن يرافقنى أى أحد من الأصدقاء فى التجوال بالجندول لأبقى أطول فترة ممكنة فى حالة تأمل مع بديع صنع الله ، فيقينى أنه بينى وبينهم هوة عميقة كلما تطرقت فى الحديث عن الأحاسيس والمشاعر وكل مايمت للقلب بصلة ،

وفضلت أن أدندن الجندول وأغازل القمر ، فأنا دائما كالنجم الأوحد الذى يرحل بعدما يضفى على كل الناس البهجة والحنو ، من المدهش حقا أننى عشت بضعة أيام محاطة بالمياه والقوارب ، فنسيت الإرهاق لعدة أيام ، طويت كل مايزحف إلى عقلى فيحرمنى متعة النوم ، أنا الآن فى موعد مع ليل الساهرين ، فالنور الخافت يؤجج قلب الطائر الحالم فى رحلة نادرة ، بعيدا عن الضوضاء وصخب القاهرة .

وأعود بالذاكرة إلى مسرحية تاجر البندقية ، و«ماركو بولو» ، وجسر اللاعودة أو الآهات ، وفى الجندول الذى يبعث الإلهام ، حاورت البحّار فقد مللت الصمت أعواما وأعواما ، البحّار خفيف الظل ، عشق مصر حينما أدفأت أحضانه مدن القناة التى عاش بها عشرة أعوام فى الستينيات .

- ألست معى ياصديقى بأن اللاعودة والآهات كلمتان تبعثان على الضيق والتشاؤم فى بلد الرقة والعذوبة ؟

- تعودت أسماعنا على ذلك ، لكننا نبتسم ، فالجسر كان الممر الوحيد الذى يمر عليه المحكوم عليهم بالإعدام وهم فى طريقهم إلى مكان التنفيذ.

- ماذا عن الآهات ؟

- إنها آهات المحكوم عليهم عندما يتأوهون ويئنون على الجسر من فرط الخوف والرعب ، فهم يعلمون أنه بعد قليل سيودعون الحياة .

- يا صديقى كفانا الله شر الآهات ، نؤمن أنه لا سبيل للهروب أبدا من الأقدار ، لكن الآهات المصرية هى آهات سيدة الغناء العربى ، يا لرقتك يا بيرم ، ويالعذوبة لحنك يا شيخ زكريا!

- دعنا من الكلمات الكئيبة والذكريات المليئة بالدمع والسهام ، هذا الجسر يتحدى بالعشاق الظلام ، فالاعتقاد السائد أنهم إذا مروا فى مركب تحت هذا الجسر فى وقت الغروب ، فالحب بينهم يبقى مدى الحياة ، فينيسيا موطن أهل الهوى الباحثين عن المتعة الروحية الممزوجة بالعشق الوجودى هى أروع مكان لقضاء شهر العسل.

- يا صديقى الحياة بالنسبة لى تمضى بحب وذكرى ، بيوم لقاء ويوم وداع ، إذن لا طائل من المرور تحت الجسر بمفردى لحظة غروب الشمس .

- يابنت النيل الجسر للجائع والظمآن ، أما القارب فللعبور فى الشروق والغروب ، يامريم .. افتحى قلبك للخضار ، القمر دوما فى انتظار الصب يبوح بالأسرار ، فإن شئت تملكين شراع العمر فهيا دون إبطاء ، الجندول مصدر الإلهام .

- قلبى يتأرجح بين شطآن وشطآن ، أخاف من نجوى العيون .

- لا ترتمى فى وحشة البحار ، آهات الأنين تسمعها كل الطيور، فلنمر من تحت الجسر عند وداع قرص الشمس ، والله يقضى الأمر ، رجاء لا تجعلين من الجندول الحنون بستانا للبكاء فيطفىء فى عيونك النور .

- ذكرتنى الآن بالعندليب حين يشرق فينا بأروع أغانيه (بأمر الحب).

فى تلك الأيام ربطت بين أحاسيس الغرام بفيرونا ، ومشاعر الدلال بفينيسيا ، فى الحالتين النفس البشرية تواقة لنداء للعشق، وآه من مرارة الفراق والهجر ، والمحب يتعلق دوما بقشة تحفظ له دقات القلب ، وإن لم يكن مقتنعا بالطقوس المتبعة ، فهى من وجهة نظرى طقوس لا تضر، لكنها محاولات بديعة وذكريات رائعة تظل بينك وبين من تهوى ، نصنع بها الأزمان فتظل فى عمق الأعماق، تورث للأبناء والأحفاد فيتعلمون الرحمة والوفاء ، من تلك الطقوس ماقلناه الآن عن جسر التنهدات ، أو رمى عملة معدنية بنافورة الأمنيات ، أو وضع قفل فى المكان المخصص لذلك على سور العشاق ثم رمى المفتاح بالبحر ، أما ليلة السفر فقررت ألا أنام ، مع النخيل والجندول أرى الدرر ، سطح الماء وقد انعكست عليه أضواء المصابيح من كل لون ، أودع أسراب العصافير قبل أن تستقر على أغصان الشجر .

ما أجملك يا فينيسيا ! يعيش ناسك بهدوء وصفاء ذهن أحسدك عليه ، ورحت أسأل نفسى مجرد سؤال : ماذا لو هيئت لى الظروف بالفعل وأصبح بمقدورى العيش هنا باقى العمر كما تمنيت بالأمس؟ هل سأكون سعيدة حينما أتخلص مما أنتقده بمصر ؟ وكان الجواب بكل الصدق أننى بعد يوم أو يومين أو ثلاثة أيام ، أسبوع على الأكثر سينتابنى الملل والضجر ، سأفتقد آذان الفجر الذى ينبؤنى بإشراق فجر جديد ، تحية العلم التى يؤديها طلاب المدرسة الابتدائية الملاصقة لبيتى بالقاهرة ، صوت الأسانسير والحارس يضع الصحف اليومية على باب البيت ، أفتح لألتقطها وبين يدى فنجان القهوة ، رنين الهاتف فى الصباح الباكر وأولادى يطمئنون علىّ ، سأفتقد بائع الخضر والفاكهة يوم الجمعة عندما ينادى على الطماطم والفلفل والبرتقال ، فأهرع إلى البلكونة وبنظرة واحدة أعرف ماينقصنى ، وبعد دقائق تأتينى الطلبات ، من المؤكد سأفتقد ياصباح القشدة ، ياصباح الفل ، نهارنا أبيض ونادى بالصلاة على النبى ، إنه الحاج «عبد الله » صاحب محل طيور الحب الملاصق للبيت ، والذى أقف أمامه للحظات كل يوم ، أطالع العصافير وهى تحيا الغرام برغم السجن ، فهى أفضل من سجن بلا حب ، تعودت على الإيقاع السريع فمن غير المعقول أن أذهب إلى اتحاد الكتاب أو دار الأدباء فى قارب ، من المستحيل أن أركب الجندول عند زيارة طبيب العمود الفقرى ، أو أركب زورقا مطاطيا عند لقاء أحفادى ، فينيسيا الجميلة ...أحببتك نعم ، لكن وداعا لكل الأماكن التى أعجبتنى ، وداعا للحياة البسيطة والسكينة التى لم أعتد عليها ، سأعود إلى بيتى وشموعى وأوراقى ، الضوضاء من حولى سيمفونية رائعة تؤكد لى فى كل لحظة أننى مازلت أحيا ، فيا مصر ستظلين بداخلى عنوان الشهامة والكرامة يامن سكنت أحداقى، بالعشق تميل كفتك ، فى عروة قميصى علم بلادى ، إسورة تزين معصمى ، تاج على الجبين ما أروعه ، يامصر كم أنا فى احتياج للبوح بما يجول فى الخاطر ، فهل أسعدتنى حقا المدينة الساحرة ؟ ربما راقت لى عراقة مبانيها ومعمارها المتفرد ، لكنى أتوق لترابك ياوطن .

تورينو:

كثيرا ما سمعت عن روعة وورونق «جبال الألب» ، لكننى لم أتخيل أن أحلق إلى قمتها يوما ما ، لم يدر بخلدى أن أصبح معلقة بين السماء والأرض بحبل داخل تليفريك في سويسرا ، ثم أعاود التحليق إليها مرة أخرى من مدينة «تورينو» الفائقة الجمال بشمال غرب إيطاليا ، والقريبة من الحدود الفرنسية والسويسرية ، فالمناظر الخلابة والقمم العالية التى تكتسى بالثلوج في عز الصيف ، هى أروع ماتراه العين ، فى قمة الجبل فندق يرتاده أهل الغرام الذين لا يعرفون المحال ، يحلقون بالأحلام ليعزفون على أوتار القلب ، ينتشون بالتلاقى فى مكان يغيب عنه كل البشر ، فى الفضاء الفسيح يزحفون إلى النور ، يمزقون أوراق المواقيت لا يحتفظون بالساعات ، تكفيهم قلادات العشق على الصدر ياقلب الهيام وبرغم هذا الجو الرومانسي ، إلا أننى لم أحلم يوما بالعيش فى الفضاء العلوى ، فأحلامي كوخ خشبي على شاطىء النهر ، جلبابان وشال من البرد ، طاولة ، كأس وصحن ثم قارب لسيد الحسن ، أصنع أنا الخبزتين حتى يأتينى بالسمك المشوى ، نحيا فى الخميلة وعرش اللبلاب يمتد بنا حتى آخر العمر ، وبينما أتناول الغذاء مع الأصدقاء فى قمة جبال الألب ، كنت أحلق أيضا بالتفكير فى المحبين الذين قرروا أن يهنأوا بالوصل كيفما شاءوا ولو كان أعلى قمة جبال الألب، فى «تورينو» وجدت أن التزلج على الجليد هو النشاط الممتع والجاذب والمتاح للسائحين ، أما الأمطار فتسقط على المدينة فى فصلى الربيع والخريف ، ما أروع السير عبر الطرقات الكبيرة للاستمتاع بمعالم الثقافة فى كل مكان ، القصور التاريخية العتيقة ، المبانى الملكية والتى أدرج الكثير منها على قائمة اليونسكو للتراث العالمى ، الميادين الواسعة ذات النوافير الخلابة ، الساحات الجميلة التى تحيط بها الهندسة المعمارية مثل ساحة «سان كارلو» ذات المقاهى التاريخية مع القصور الباروكية المذهلة ، أما المعارض الفنية والمتاحف المسارح ، المكتبات ، دار الأوبرا ، كاتدرائية «سان جوفانى» وتعتبر أشهر الكنائس فى تورينو فوصفها يحتاج مجلدا ضخما .

وتظل زيارة المتحف المصرى بتورينو عنوانا للعراقة والأصالة والتاريخ المجيد ، المتحف المصرى يعتبر أحد أهم الأماكن الأكثر جذبا وسحرا فى المدينة ، لا أنكر أننى أشعر بالزهو والفخر لأننى مصرية ، لكن المشاعر خارج حدود الوطن تصبح أكثر دفئا وأكثر عمقا ، كنت أتجول بالمتحف الذى يحظى باهتمام كبير من السائحين خاصة من محبى الحضارة المصرية القديمة ، فبهرنى كم الإعجاب بالقطع والتحف والآثار المصرية العظيمة والتى يعود بعضها إلى عام ألفين قبل الميلاد ، الكل فى سباق ليلتقط الصور التذكارية ويضم أيضا مجموعة كبيرة من ورق البردى الأصلى ، وأيضا العديد من المومياوات التى عجز العلماء عن فك سرها وجعل العالم يحسدنا على حضارتنا التى قلما يجود الزمان بمثلها .

تورينو تعتبر عاصمة الحلويات والشيكولاتة فى إيطاليا ، خاصة «فريرو روشيه» اللذيذة ، وتشتهر أيضا بالآيس كريم خاصة المصنّع يدويا ، والمفضل منها هو مذاق البندق .

أما أجمل الأشياء التى لن أنساها ماحييت ، وجعلتها مسك ختام كلامى عن «تورينو» فهى زيارتى لكاتدرائية «يوحنا المعمدان» لرؤية كفن السيد المسيح «عليه السلام» ، هذا الحدث الاستثنائى فمن المعلوم أن الكفن المقدس يعرض كل عشر سنوات للعامة لنوال البركة ، والكفن المقدس عبارة عن قطعة من الكتان تحمل آثار جسد السيد المسيح عند دفنه ، وقد عثر عليه فى القرن الرابع عشر فى «نوتردام » بفرنسا .

رتب مشرف رحلتنا منذ أشهر طويلة لهذه الزيارة التى اعتبرتها هدية من الله بالنسبة لى ، فأنا ضد زيارة القدس ومازالت تحت الاحتلال الصهيونى ، حتى وإن ساق المعترضون على رأيي من أعضاء الرحلات مبرراتهم فى أنهم لا يتوقون إلا للتقديس وزيارة كنيسة المهد والقيامة خاصة من كبار السن ، ووجدت أن الجدال العقيم لا مبرر له ، فلكل إنسان الحق فى إبداء الرأى ، واعتبرت أن رؤية الكفن بمثابة حج مبارك للقدس لن يخل بموقفى وقناعاتى ، كان اليوم ربيعيا حينما اصطففنا فى طوابير لا تلوح نهاياتها ، جنسيات مختلفة من كل أنحاء العالم ، حراسة مشددة جدا على الطرق المؤدية للكاتدرائية ، وكلما اقتربت خطوة تسارعت دقات قلبى إجلالا وإعزازا للمشهد ، ترجلنا أكثر من ساعتين حتى أتى دور مجموعتنا التى لا يتعدى أفرادها العشرين

وكانت التعليمات إغلاق الهواتف، التصوير ممنوع ، التزام الصمت التام لمدة خمس دقائق هي عمر وجودنا فى حضرة الكفن المقدس ، فتح لنا باب الكنيسة التى أطفئت أنوارها بالكامل باستثناء بعض الشموع والقناديل ، سرنا بهدوء شديد وعيوننا نحو هيكل الكنيسة ، لنطالع بكل خشوع الكفن المعلق على ارتفاع كبير فى برواز ضخم على شكل مستطيل ، وقد أحيط أيضا بحراسة مشددة ، وبعض الأضواء قد سلطت عليه لنتمكن من تأمل آثار عذابات السيد المسيح له المجد على الصليب ، مكان المسامير والحربة التى غرست بجنبه ، آثار الدماء التى سالت من كامل جسده ، إنها لحظات نورانية سطرت فيها هذه الخاطرة :

فى حضرة الكفن المقدس:

وكيف لى أن أسطر ما اعترانى فى حضرة الكفن المقدس؟

إن كتبت عنه تعجز أقلامى ، نلوذ به فى زمان تهاوى الحب فيه ، نتناسى أن مافى الكون فان ، رنوت كأننى طير أضحى صامتا.. يمضى راضى النفس هانئا ، تجاوزت بالفرح حد السحاب مشاعر مالها من ترجمان ، صرت لا أدرك شيئا فماذا عنى ؟.. ماعسانى ؟

ياحبيبى وهذه الجراح لأجل نفسى وأنا الخاطىء أنا الأنانى

المسمار والسوط والدم المسفوك ، وحين طالعت موضع الرسغ والقدم وحربة غرست بالجنب ، صرت لا أدرك شيئا .. كأن قوسا رمانى، وأنا فى الأرض ماضى العزم نحو العالم الفانى.

-أحبك - ياسيدى لكنى فى حقك قصرت ، نعم أنا الجانى ، فى معيتك كم تراءى لى وجهك المطبوع ، وكم ساورنى الخجل كيف أغضبتك ؟ وأنت تصبر وصبرك فوق طاقات الزمان ، لم أكن تقيا فى زمن يقدم بصورة مكشوفة كل مارق ، إنه الخطب ماذا دهانى ؟

على الصليب من العذابات تعانى وأنا الصامت وجفا البوح لسانى

ثم هرعت إليك وكانت فرصة الذهب حين سافرت أميالا وأميالا

لمست الألم على الكتان بلونه العاجى فسرت الرجفة بأطرافى

تفاصيل الشر تذوب من فرط قسوتها الأفئدة والأبدان

ياحبيبى .. من أجل الخلاص والفداء بذلت ذاتك عنى ، وأنا على يقين بأنك لن تنسانى ، سامحني .. أحتاج إليك تنتشلنى من إعصار وبركان ، كان ثقلا يعصرنى ، يذوب قلبى من أنات وجدى ، أحيا وأفنى دون اتزان ، ياسيدى دعنى بين أحضانك أغفو ، مد يديك فى الفرح أو فى الضيم لاتتركني ثوانى ، حررت روحى حين وطئت قدماى (تورينو) لأزور كاتدرائية يوحنا المعمدان .

ومر شهران

صدقت الأحاسيس ، أوشكت أن أطير حين بُشرت بالخبر الطيب وكان الأربعاء قالوا :

طبت مساء يامريم ، ثلاثية السلام باتت عالمية؟ ترجمت إلى الإيطالية والأسبانية والفرنسية ، وكأن ملاكا أرخى جناحيه مبشرا من هذا المنبر ، وراحت الشمس تعب آفاقى نورا ، تدثرت بأبهى فساتينى لأجوب رياض تغمرها بالعطر زهور ، وقصدت ركنا فى بيتى أحسبه عشا أمضى إليه قصرا ، لأفكر على مهل فى السفر ، الآن باتت الثلاثية مرجعا طول العمر ، فهفت نفسي لعناق البدر فرحا وانتشاء ، يشدنى الهوى نحو الأريج فى الأزهر الشريف ، الآن الفرح شلال بالدماء يسرى ، ورفعت ذراعى

بالشكر لإله الكون ، وأن يحفظ لى من أزال عن قلبى جبال الحزن، لكن ترى ماذا أقول حين أتسلم الكتب من اليد الكريمة التى أوقدت فى نفسي شعلة الأمل ؟ ماذا أقول للروح السمحة النقية والنفس المخلصة ، فضيلة الإمام الأكبر الدكتور أحمد الطيب ؟ ورحت كما تعودت دوما قبل ميعادى أقبّل هذا الجدار وذاك ، أطوف بالذكريات كى أستحضر صورا وردية ، أفتح قلبى للنور والخضار ، أتنسم عطرا حفر بالأعماق حينما التقيت بالشهب ، أدور ببصرى أدقق فى الباب الخشبى الذى يشع بكل مايبعث على الفرح ، كم كنت أخاف أن يبحر القارب فى أى اتجاه ، لكنه بدد خوفى من عاصف الخريف يقتلع الجذور، داوى بكفيه آلامى فغردت فى ضلوعى فرحة العمر ، راح الطيب بالسلام يسلمنى أطواق الزهور، فعشت لحظة تحقيق الأحلام يابسمة القدر .

ودار الحوار :

- لن تكفى كلمات الشكر وعظيم الامتنان على هذا الجهد مولانا الطيب ، لن أجد مايرقى لمقامكم الكبير ، حين يحل الموعد المأمول للقاء قداسة بابا الفاتيكان سأقول : ياسيدنا إن وطنى مهد الأوطان ، جرس وأذان ، علّمنا الطيب أن الدين هو المعاملة ، الطيب الذى يمثل الدين السمح الذى بات يهاجم بكل إفك وافتراء.

عشت بين إخوتى بحب ووئام ، كل ما سطرته لكى أنزع الأشواك بالأشواق فأنا أخشى على البساتين من الذبول والمرار ، آن الأوان لأقاصيص المساء والقوافى البيضاء ، من أرض المحروسة أهدى الفاتيكان كلمات سطرتها بمداد من ضياء ، فمتى تاه الحب توسدنا الأرق ، فثمرة الحقد توحش وغضب ، الخير مازال يرعى فى كل البقاع ، أهدى الفاتيكان غصنا طيبا وحمام سلام .

- تصحبك السلامة يامريم ، بلغى سلامى وتحيات الأزهر الشريف إلى قداسة البابا فرنسيس .

- إلى اللقاء على كل الخير مولانا الطيب إن شاء الرحمن .

يا ليالى الأربعاء

اليوم أنتشي بليل مقمر ، فيا حمام أقبل بالدفوف ، واجعل العصافير بيننا ترنم وتنشد ، افتح النوافذ ،لا تشعل المصابيح أمام النور المتقد، أوحى لى القدر حين أقبلت أنشد السلام أن الأربعاء بهاء ، يشرق دوما تاريخا من الجمال ، المطر والجدول ، فثمة شعر وتغريد بلبل ، فقد بات الأربعاء لعيني أحلى من طعم العشق ، من صوت الماء ، من حضن الطفل ، من لثم الزهر ، أما ضحكات الزهور فتهفو للقبل ، ياحمام الأربعاء أتوق لاحتواء أعلام نصرى .

أولى خطوات الرحلة:

كان التواصل مع سفارة الفاتيكان هو بداية الانطلاق نحو العالم بثلاثية السلام ، فمن خلالها

ستأتينى الدعوة لمقابلة قداسة البابا ، أما اللقاء مع سعادة السفير المطران «برونو موزارو» فلم يكن هو اللقاء الأول ، بل سبقه لقاءآخر بمقر اتحاد كتاب مصر ، عندما وجهت إلى سعادته الدعوة للمشاركة فى مناقشة كتاب (كلمات فى أرض السلام) فهو قبل أن يكون سفيرا هو القامة الدينية المقدرة ، شاركنا ندوة ضمت كوكبة من المطارنة الأجلاء ، ولفيف من النقاد والأدباء والشعراء ، فأضفى على الأمسية رونقا يفوق كل رونق ، ولحسن الحظ أن النسخة المترجمة بالإيطالية كانت قد صدرت للتو فقدمتها إليه قبل الندوة بثلاثة أيام ومع ذلك أولاها الكثير من الاهتمام ، وجاء على جناح الأمانى ليقول : إن الكتاب شيق ، أرّخ جيدا لزيارة قداسة البابا إلى مصر، وأن من لم ير مصر فعليه بقراءة هذا العمل الرائع ، على محيّاه ابتسامة ربيع ، جذبنا فى هذا اللقاء بحلو حديثه وحلو إنصاته ، وللوهلة الأولى شعرت بالتفاءل والرضى ، وبات الأمل يرتاد فؤادى، يحتوينى الأريج والخميل .

«برونو موزارو» اسم جهير فى عالم التواضع والذوق الرفيع ، وإذا كان التفاهم بيننا مفعما بالمودة ، فلأن قلب الملاك بات إلى قلبى رسولا ، فقد منحنى أكاليل حسن ، حين أرسل يطلب إلى الفاتيكان موعدا للقاء البابا «فرنسيس» وبين يدى الكتب التى تمت ترجمتها من خلال مركز الترجمة بالأزهر ، وأتانى النبأ الجميل استعدى لحلم العمر القريب

فهمست للورود : هل إلى جناح الحمام سبيل ؟ هل من إطلالة بدر على الأكوان تشرق ؟ هل من نجوم على صدر الزمان شهود ؟ فشكرا لمن جاء غيثا فأتى العيد مبكرا .

أشواك:

لماذا الصخور وأحجار الطريق يامريم ؟ الأمور كلها كانت تسير على مايرام ، هاهى الأشواك التى لم تكن بالحسبان تغتال أروع اللحظات ، تغرقنى فى عميق اللجج ، يقينى أنها حكمة الله عز وجل ، فقد كنت مطمئنة جدا أن الأب «يوأنس لحظى » سكرتير قداسة البابا «فرنسيس» وهو مصرى الجنسية ، سوف يتولى مهمة الترجمة من العربية إلى الإيطالية صباح الأربعاء ، مطمئنة أننى سأترك لقلبى العنان يفضى بما فى العقل والروح عن ثلاثية الحب والسلام ، يحكى عن الدور الطيب الذى أرسى للتعايش بين الأديان قواعد وقام به فضيلة الإمام ، مطمئنة أننى سأكون على سجيتى ، إنها فرصتى التى ماكان لها أن تتحقق دون سهر ، دون تعب ودون جهد ، كم حرصت أن تكون الكلمات منتقاة ، والمعانى تنسجم وتتلاقى مع وجدان كل القراء على حد سواء ، لكن الصدفة أجهضت أحلامى حينما علمت من أحد الآباء المطارنة أن الأب يوأنس الذى عوّلت على وجوده إلى جوارى سيكون بالقاهرة فى تلك الأثناء ، فلا سبيل أمامى إلا التحدث بالإنجليزية ، وبالنسبة لى فالإنجليزية جيدة لكنها لا ترقى للتحدث مع البابا بطلاقة فى وقت قياسى ، يا إلهى ماذا أفعل واللقاء بات وشيكا ؟ ليلة لا أنساها ، عاد النوم يجافى عيونى ، والتوتر أبى أن يتركنى للعيش الهانىء ، فباتت النفس تشكو سوء الحظ ، لكننى تذكرت كلمات قداسة البابا «كيرلس السادس» (نيح الله نفسه) حينما قال :(كن مطمئنا جدا جدا ، ولا تفكر فى الأمر كثيرا ، بل دع الأمر لمن بيده الأمر) ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وجع:

إنها آلام العمود الفقرى والتى تلازمنى منذ عام ١٩٩٠ ، فكم حاولت التغلب عليها بالمسكنات التى كانت تنجح مرة وتفشل مرات ، تحملت الكثير لأننى كنت بعمر الشباب ، ومضت بى الحياة بين نشاط وضعف ، وحالما قضيت رسالتى نحو أسرتى وجدتنى فى معية أطباء العظام ، لم أعد أبرح مراكز الأشعة وحقن النخاع الشوكى، العلاج الطبيعى والصيدليات ، وهنت مقاومتى بعدما تطورت حالتى للأسوأ

ولم يعد هناك من سبيل إلا عملية جراحية تحمل من الخطورة الكثير وبات الألم رفيقا لا يبرح حتى ساعات منامى وساعات نهارى ، آه وآه مكتومة لكن ما ذنب الآخرين؟ أشكو لابنتى وهى صديقتى ، وفى كثير من الأحيان تصير أمى خاصة عندما يدق الهاتف فى الصباح الباكر فتطمئن على صحتى، كانت كلماتها الحنونة تدعونى للصبر فمن المؤكد أننى أفضل من مرضى حالتهم أسوأ منى بكثير ، وبمرور الوقت اكتشف أننى أصدّر لفلذة كبدى الحزن والهم اللذين باتا يمنعانها من الفرح بصغارها ومازالت فى مقتبل العمر ، وقررت أن أتوقف عن الشكوى إليها تحت أى ظرف.

واكتفى بالقول كلما سألتنى بأننى صرت أفضل ولله الحمد ، لكن الحقيقة أن الألم بات أقوى من تحملى خاصة بعدما أصبحت على مقربة من موعد السفر لتكتمل الحكاية الدافئة ، أما التوتر والقلق فلهما دور فى مضاعفة الوجع ، وكان السؤال الذى بات يلح علىّ ماذا عساى أن أفعل خاصة وأننى سأكون بمفردى ؟

يارب فلتدبرأمرى ولا تخذلنى أمام الوطن ، يارب يامن تدرى بخبايا الفؤاد والروح ، امنحنى قوة المسير نحو سلام بدأه الطبيب الإنسان ، يامن جعلتنى سببا من أجل خير بلادى وأمتى .

كان الدعاء لله «عز وجل» يعب روحى بالطاقة الإيجابية، فيعاودنى الأمل بأن كل الأمور ستكون بإذن الله على مايرام . كم واجهت من عقبات وعثرات فى الحياة لم أشأ أن تهزمنى يوما ما ، عبرتها وأكملت المسير ، فلست من هذا النوع الاتكالى الذى يبكى كلما ألمت به الخطوب ، كم تصديت لعاصفات الليالى ومرت الرياح بخير وسلام ، تلك هى الحياة ، ونحن فيها مرضى وأصحاء، بين سعادة وأحزان ، فلنرض- شاكرين - بما يأتينا دوما من عند الله .

حقيبة وتذكرة:

لما كان الوقت يمر كلمح البصر ، كان لزاما علىّ أن أبدا فى حجز التذكرة والفندق الذى أسكن به ، ومن الضرورى أن يكون قريبا من مقر الفاتيكان ، كما نصحنى سعادة المطران «برونو موزارو » سفير الفاتيكان ، وحجزت رحلتى قبل الموعد المحدد بثلاثة أيام لأترك لنفسى مساحة للاسترخاء فى ظل المعاناة من الألم ، وأيضا فرصة لكى أتسلم دعوة الحضور

كما طلب إلىّ ، كنا فى شهر ديسمبر من عام ٢٠١٧ ، الطقس فى مصر مازال مشمسا جميلا ، أما فى إيطاليا فالثلج بدأ يطل مبكرا على بعض المدن ، كنت أتابع نشرة الأحوال الجوية التى أنبأتني بأن روما فى تلك الفترة ستكون صقيعا ، إذن معطف من معاطفى الثقيلة كفيل بصد البرد عن روحى ، أما ذهنى فبات مشغولا ليل نهار، تُرى هل هناك مفاجآت ليست على البال ؟ تلك الخطوة بالنسبة لى تعتبر تتويجا لجهد عامين من أجل السلام ، ولاحظت أنه كلما اقتربت نحو الموعد يزداد اضطرابى بل خوفى ورعبى ، وكأننى سأحلق بالطائرة لأول مرة ، لا أنكر أن من دواعى الخوف كان هاجس الفشل الذى فرض على عقلى ووجدانى نفسه، ولا أدرى لماذا هذا الهاجس يتراءى لى كلما اقتربت الأيام ، رغم أن كل شيء معد سلفا وعلى أكمل وجه .

فها هى ثلاثية السلام بأغلفتها البيضاء تسر الأفئدة ، أوراقى جميعها كاملة ، أما بدلتى السوداء فقد اشتريت لها قميصا عاجيا من الساتان ، سوف أطوق نحرى بقلب أهداه إلىّ رفيق الدرب ، وبروش من الماس فى عروة الجاكيت فتكتمل أناقته ، إذن لا مجال للمشاعر التى تؤرق أيامي وتحرمني سلام نفسى ، من المؤكد أنه الشيطان الذى يوسوس لى حتى لا أرسو على بر ، الشيطان الذى لا تطيب له حياة السلم والحب ، فى الظلام يعد عدته ، ثم يطوف ليعكر صفو الحياة بين البشر ، فإذا نجحت خطته جلس شامتا ، مختلسا نظرة الوعيد للانتقام من عباد الله المخلصين .

قلت لنفسى يامريم : الأيام السعيدة قليلة ، لماذا تعطي لعدو الخير الفرصة ليفرض عليك غمامة بلون قلبه ؟ ألا يكفيك السفر على كرسى متحرك بعدما كنت فراشة الروض ؟ لا لن أجعله سيفا يزحف إلى روحى زحفا ، فإيمانى بأن يد الله التى باركت مصر ستبارك أعمالى وتحميني من عصف الليالى ، فإذا نجحت فهذا فضل من الله تعالى ، وإن لم أنجح فيكفينى أننى دعوت الناس للحب.

وكأنى فى جب الأسود:

ورحت أفتح صفحة جديدة مع الأيام دون هاجس القلق الذى كثيرا ما يفترس أحلامي ليخيب رجائى ، القلق عدو نضارة وجهى وصفاء عيونى حاولت ، حاولت ، عبثا أحاول ، تكسر على صخر الخوف مجددا أمانى وسلام روحى العطشى للفرح الحقيقى ، ياربى ماذا دهانى ؟

قفـزت مـن سـريرى لأرد علــى هـاتف صــديقنا الـذى يرافقنـا دائمـا بالرحلات الدولية ، ويتحدث الإيطالية بطلاقة ، فقد عمل بالفاتيكان لأكثر من خمسة عشر عاما ، ثم عاد للاستقرار فى مصر ، لكنه بين الحين والآخر يزور إيطاليا التى يحمل لها بداخله كل الذكريات الطيبة ، ويحفظ منها كل شبر لدرجة أننا كنا نعتبرة مرشدنا السياحي، المهندس «عادل سمير» الشخصية الودودة المتعاونة مع الجميع خفيفة الظل ، فهو يعلم جيدا تفاصيل ماقمت به من الألف إلى الياء فبات المشجع والداعم لفكرتي ، لم يبخل أبدا بمشورة ، خاصة أنه كثيرا ماحضر اجتماعات البابا فى الأربعاء من كل أسبوع ، ولكى يسهل علىّ الأمر شرح لى خط السير من ساحة الفاتيكان إلى قاعة الاجتماع ، المكان الذى سأتسلم منه بطاقة الدعوة ، وأيضا عناوين البازارات التى سأشترى منها الهدايا التذكارية بأسعار مناسبة ، وكان الحوار :

- عمت مساء أختي مريم ، معذرة لم أتواصل معك بالأمس ، جمعت بعض المعلومات عن الفندق الذى تقيمين به ، ترى ماجديدك اليوم ؟

- طبت مساء أخى الفاضل الباشمهندس عادل ، أدرى أن الخوف الذى يملؤنى كلما اقتربت من الموعد أمر طبيعى ، لكن النوم بات صعب المنال ، فاعذرنى إن كنت قد أثقلت عليك بالاستفسار عن كل صغيرة وكبيرة منذ اتخذت بالسفر قرارى ، ماذا عن الفندق ؟

- أعرف معظم فنادق إيطاليا بحكم الفترة الطويلة التى قضيتها ومضت كالأحلام الجميلة كما تعلمين ، لكن يؤسفنى أن أبلغك اختيارك لهذا الفندق تحديدا كان خطأ جسيما ، خانك التقدير فعلا ، فالمكان كئيب والخدمة رديئة جدا.

- الفندق خمس نجوم ، طالعت بعض الصور قبل الحجز فوجدته رائعا هادئا ، محاطا بالحدائق ، الغرف واسعة والمطاعم ترضى كل ذوق ، يكفينى أنه يطل مباشرة على قبة الفاتيكان فأعيش الأجواء النورانية نهارا ومساء ، هناك سيارة بانتظارى تقلنى من المطار والعكس ، وللأمانة فإن شركة السياحة التي قامت بالحجز أبلغتني أن القائمين على الفندق أرسلوا التفاصيل مقرونة بأطيب التمنيات بإقامة هادئة ، وبمنتهى اللطف يرحبون جدا بشاعرة من مصر العظيمة ، إذن لن ينقصنى أى شىء بإذن الله .

- لا عليك أختى العزيزة مريم ، معك كل الحق فيما تعانى ، لكن عذرا لصراحتى ، فربما تقطعين المسافات ولا تحققين الطموحات ، فلا داعى لرسم صور وردية من الخيال .

- أعتقد أن اضطرارى للسفر على كرسى متحرك يخلق لى قيدا لم يكن بالحسبان ، لكنى لست قلقة على اللقاء فى حد ذاته ياصديقى .

- يامريم ليكن فى معلومك أن البابا يتجمهر حوله العديد من الزوار والحراس ، فإذا لعب الحظ معك دوره ، ربما تتمكنين من لقاء قداسته ولو لثوان .

- أُرسلت إلى دعوة كريمة ، هذا يعنى أن مكانى بين المدعوين محفوظ ، ماعلاقة حسن أو سوء الحظ فى أمر معد سلفا ؟

- أوكد لك أنك ستجلسين فى الصفوف الأخيرة ، الصف الأول للدعوات البرونزية .

- دعوتى برونزية أخى عادل .

- ليس شرطا ، سيضعون الكثير من الحواجز ، تذكرى كلامى حتى لا تتفاجئى ، اعتبريها رحلة للاستجمام .

- وكتبى التى سطرتها بدمائى ، وجهد الأزهر المشكور ، ماذا أجنى لو لم يعلم البابا بالأمر ؟ ماذا أقول لمولانا ؟ فشلت ؟ !

- حضرت هذه اللقاءات مرارا ، البابا ليس لديه متسع من الوقت، وربما يتسلم الأعمال أحد المرافقين لقداسته وينتهى الأمر

- رجاء كفى .. صدمتنى صدمة العمر ، كيف ينهار حلمى هكذا، لدى الأمل أن يسمع سيدنا ماخبأته فى القلب ، ثلاثية السلام أعمال جادة ، رسالة نبيلة من مصرية مسيحية أرادت أن تخرج من الدائرة المغلقة لآفاق سلام أرحب ، ومن ثم يبارك أحفادى .

- البابا لا يحمل قلما ولا يوقع على صور قط .

- أكاد أختنق من فرط الرعب ، مازلت أحلم بحوار قصير ، وصورة تبقى فى بيتى أيقونة بركة مدى الدهر .

- لا أخفيك سرا ، لقد شعرت للوهلة الأولى بتلهفك لهذا اللقاء ، لمحت السعادة فى عينيك وملامحك كأنك طفلة تتوق إلى لعب الأطفال فأتتها العروس ، وأنا لم أشأ أن أفسد عليك بهجة أيامك ، خصوصا وأنت تعانين من ألم مبرح ، لكن مادمت سألتنى من واجبى إرضاء ضميرى .

- إلى هذا الحد يمكن أن أعود أدراجى بخفى حنين ؟ كم ملأت قلبى بالتفاؤل ، والآن بات كلامك عكس الأمس !

- ماذا يضيرك يامريم لو لم تقابلى البابا شخصيا ؟ سلمى الكتب لأحد المسئولين بالفاتيكان ، حاولى أن تستمتعي بالوقت ، إيطاليا جميلة، ولا تنسى أن تطمئنينى عليك .

أحسست بالأرض تميد بى ، الكون رمادى والقلب من الهدم يعانى.

انتهى الحوار بضحكات عادل وقهقهاته ، بينما أهمس لنفسى هذا ليس أوان الضحك ، صنعت للوطن كلمات عذبة من أجل التسامح والعيش الهانىء للجميع ، أمنياتى كلها طيبة ، يشهد عليها كل الأصدقاء ، فكيف تطير فى الفراغ ؟ هذا ليس أوان الإصرار على المزاح السخيف ، أو الاستهتار بصدق نواياى على الإطلاق ، وحرت كيف يقلب الطاولة على رأسى بهذا الشكل الفج ، كيف يسعى لكى أرى الدنيا بعين السجين ، فأكتئب وأتعثر بالأنين ، عادل كان أول من يسألنى عن جديد أعمالى ، أول من رحب بالسفر إلى الفاتيكان ، فهل سيكون على حق ستموت أحلامى فى المهد ؟ أنا لا أدرى مايخبئه لى الغد .

الملجأ الأمين فى كل وقت

كنت كالعشب فى وحشة الصحراء يحن إلى قطرة ، أرقب فى الغيم خيرا ، بالحب أداوى كل جرح ، أرنم بالوادى للربيع الباكر ، كم طال انتظارى للخمائل والربى فى هذا العالم الذى بات يعج بالقسوة فغادرته البسمة ، قلت : يامريم افتحى للظل الوارف أبواب الفؤاد ، انزعى من لياليك كل اغتراب .

ثم ارمى الثقال على رب الكون ، كان هاجس الخوف من تطور حالتى المرضية إلى الأسوأ مايحرمنى العيش فى الأجواء النورانية المنبعثة من ساحة القديس بطرس الرسول ، خاصة أننى سأكون

مضطرة للسير مسافات ليست بالقصيرة حتى الوصول إلى ساحة الفاتيكان ، ومسافات أخرى للوصول إلى القاعة للقاء قداسة البابا ، سأحمل مظلة تقينى المطر ، تحمى الكتب من البلل ، بينما أتدثر بالقطع الثقيلة التى ستصبح عائقا أمام حركتى ، وأمام ذلك لا أنكر حاجتى الفعلية إلى المساعدة ، لكن كيف السبيل إلى من أتكىء عليه ويحمل عنى حقيبة الكتب ؟ على الأقل ذهابا ، وفى الإياب يقضى الله أمرا كان مفعولا ، لم يكن هناك شط وإرساء إلا إمام المصريين ، هكذا أطلقت على فضيلة الدكتور أحمد الطيب فى كتاب جزيرة السلام، فلا أحرم من الوجود بمعية الكرام النبلاء، الأوفياء الطيبين .

يامريم الطريق معبد دوما أمامك ، لماذا تثقين فى أسود الضمير الذى يتفنن فى إفساد فرحة دفعت من أجلها الغالى والنفيس ، لا تكونى مطمعا لضعاف النفوس الذين يتخفون وراء الفضيلة ، وهم أهل الغل والحقد الدفين ، وأقبلت على الدار أقبّل هذا الجدار وذاك .

- مولاى فضيلة الإمام الطيب ، منذ عام صرت من المتعبين ، هو امتحان من الرب فى الصبر والحمد والشكر على كل شىء.

- نسأل الله الشفاء لكل المرضى والمتعبين .

- لو يأذن مولاى لى رجاء محبة أن يوجد من يرافقنى من الفندق حتى قاعة اللقاء .

فراح قلب الملائكة على الفور يجرى اتصالا ، بالطبع لم أعرف مع من يتحدث مولانا ، لكن نما إلى مسمعي : أن مريم القبطية تقدر كثيرا الأزهر الشريف وشيخه الجليل ، سجلت شهادتها من أجل المحبة ولا شيء غير السلام ، وإلي أن يمن الله عليها بالشفاء ، آمل أن يوجد من يرافقها فى يوم لقاء قداسة البابا فرنسيس .

ودّعت فضيلته بكل الشكر وعظيم التقدير ، وشعرت أن عبئا قد أزيح عن كاهلى فى تلك اللحظة ،عندما أغلق الطيب باب القلق ، كما أغلق من قبل فى وجه الخوف أبوابا وأبوابا ، فيارب احفظ لى الطيب من كل مكروه ، الطيب الذى قلت عنه أنه عبق سوسنى سكن الفؤاد والآذان ، خير الرجال بحسن الخلق ترعرعت أفنان ، نعم هو زينة الدنيا ودرة الأكوان .

ليلة السفر

وباتت الحيرة تلفنى والوقت بسرعة البرق يمضى ، توجهت للسماء بالدعاء : يارب خيب ظن عادل سمير الذى تفنن فى إحباطى ، فبات حديثه كهادر الموج ، كوميض البروق فى الأفق نار تشق صدرى، حديثه المريب بات يؤرق مضجعى ، ويحطم آمالى الحبيبات ، لن أظل رهينة هذا الشخص الذى أحسنت به الظن حينما توسمت فيه النبل ، واعتقدت أنه الأمين الوفى ، فلا هو عادل ولا هو سمير ، يقول السيد المسيح «له المجد» : ملعون من يتكل على ذراع بشر . فأنت القادر على كل شىء يارب ، يارب سامح ضعفى فأنت الغفور الرحيم ، ورحت أستعين ببعض الصلوات فى ذروة

المحنة، فكم كان لها مفعول السحر في تهدئة روعى وإعادة السكينة إلى روحي ، ثم بدأت أغط بنوم عميق فباتت الأحلام بالفردوس عذبة رقراقة.

وعند الفجر أيقظتنى عصافير الشجر المقابل لشرفتى ، يافتاح ياعليم يسر أمرى ، ياصباح السعادة والدنيا الجديدة ، صباح النور يابلادى ياجنة الدنيا لك كل أشواقى ، لن أنس العلم ياتاج رأسى، ثم قلبت محطات الراديو فشدنى على الفور الصوت الوطنى الساكن بالحنايا الفنانة «فايدة كامل» ولحن عبقرى لكمال الطويل إلهى :

إلهى ليس إلاك عونا فكن عونى على هذا الزمان

إلهى ليس لى إلاك ذخرا فكن ذخرى إذا خلت اليدان

إلهى ليس لى إلاك حصنا فكن حصنى إذا رام رمانى

نسمة ربيع سرت بأوردتى ، وبات شرابى من فرات سلسبيل ، قهوتى فاض سكرها ، جمعت أشيائى ، ثم دنوت من الكتب أطمئنها أنه مادامت سطرت بالحق فى خير العالم فالله لن يقصيها ، هى وسام من الإمام تبقى فى الدنيا منارة ، ودّعت بيتى الذى جعلت كل ركن فيه ينضح بالرومانسية

هنـا ورود ، وهنـاك شـموع وموسـيقى ، فـى غرفـة المعيشـة اللـون القرمزى دفـء فـى الشـتاء ، وفـى الصيف احتـواء ، أمـا أيقونـة أم النـور فتغطـى سماء حيـاتى بهـالات النـور ، فمتـى دخلـت البيت تستقبلنى سيدة الطهر مريم العذراء، ومتى خرجت تدعو لى بسلامة العودة يا أمى .

يارب العالمين فلتصحبنى على جناح الأمان فى رحلتـى إلـى الفاتيكـان .

اليوم الأول:

كانت الساعة تشير إلى الثانية عشر ظهرا ، عندما هبطت الطائرة فى رومـا ، هـالتنى حالـة الطقس ، غيوم كثيفـة والمطـر كالسـيل ، لكـن قلبـى بالدفـء مظلـة للآخرين ، طـال شوقى إلـى كـل واد ، أتوق للفرح والبوح بما يجول فى الخاطـر ، فقد لاح طيف الثلاثية كالسـنا علـى الأكوان يشـرق ، وبات فؤادى بالأشعار يزهو ، فالكتب تسمو بالمحبـة ، وبالسـلام تعبـق ، وصلت إلى الفندق والذى كان لايفصله عن الفاتيكـان إلا أمتـار قليلـة ، أمـا شرفتى المطلة على القبـة المحاطـة بالأشجار فكم أسعدنى بريق أضوائها وأجراسها ، قطعت المسافات من أجل عبير الزهر وندى الأنسام فـى فجـر الحلـم ، الآن صـار بإمكـانى أن أعـب مـن البركـات ماشئت ، يومـان قبـل موعد لقاء قداسة البابا تكفى للاستقرار النفسى والصحى ، وفرصـة لزيـارة معالم الفاتيكان على مهل ، رغـم أننـى أحفظهـا عن ظهـر قلـب ، لكـن هـذه المرة بمشاعر سفيرة سلام من أرض السلام ، وعند انتصاف النـهار تلقيت رسـالة علـى الهـاتف تقـول إن السـيدة «بـاولا» سـتأتى إلـى الفنـدق لاصطحابى بسيارتها إلى الفاتيكان عند الثامنة من صباح الأربعاء ومعهـا الدعوة فقد تسلمتها نيابة عنـى ، كـم أسعدتنى هذه الرسـالة وطمـأنتى كثيـرا أن المرافق بات موجودا ، الشكر لك يارب فقد شملتنى ببارقة الأمل بعدما شكا قلبى الخوف والانزعاج ، علـى أنغـام الموسيقى كـان عشـائى فـى تلـك الليلـة ، والشـموع بـالدلال تتمايـل ، هكذا تـراءت لعينـى ، هـذا الجـو الـذى يعبىء روحـى التواقة للجمال ، جعلنى بأجنحة نوارس تتشبث بعنـاق البحـر فقد دانت لحظة الأشواق والقبل .

صعدت إلى غرفتي ، لكن هذا ليس أوان النوم يامريم ، افتحي الشرفة واجلسي إلى الطاولة قدر ماتستطيعين ، فالأضواء على قبة الفاتيكان بركة وطهر، إبداع وأمل ، حلم حققته لى السماء ، تدثرت بشالي الأخضر ، يدفئنى غطاء رأسي الأبيض والمطرز بالورد البنفسجى ، فكم حرصت ألا أنساه ، وكيف أنساه وبين خيوطه عطر ومسك يمتد من الأرض للأفلاك ؟ غطاء رأسى الذى لا أستبدله كلما قابلت رسول المودة والسلام فضيلة الإمام الطيب ، سأغتنم الفرصة لكى تعانق خيوطه بخور كنائس الفاتيكان ، فمتى عدت كنت قد امتلكت كنزا لا يقدر بصناديق من الجواهر أو خزائن من المال ، قطعة مستطيلة من الحرير تبقى إرثا لمريم الحفيدة ، ورغم الصقيع سطرت حروفى :

حين تصفو لى الأيام تخط يميني أبياتا من حرير ، أصافح الزمان فى عرس البستان ، تورق الأشجار فى كل الفصول ، بسمة الورود فى الواحة الحنون زهر التسامح والسلام والقبول ، فلتدق النواقيس إيذانا بقدوم رسول الحب ، الحكيم النبيل ، الملاك الجميل البابا فرنسيس ، مرحبا يا زمان البر والنسك الجميل ، يابشير المحبة يانهر العيون ، أبحرنا إلى درب الرجاء بأغصان زيتون فبت فى قلوب الناس الغالى الثمين .

اليوم الثانى:

اليوم أزور معالم الفاتيكان التي سبق لى زيارتها ، فلا تخلو رحلة إلى إيطاليا من دون أن يكون هناك على الأقل يوم لنوال بركة القديس بطرس الرسول ، لكن الرحلات تعنى الاستعجال ، تعنى الارتباط بمجموعات لا يمكن أن تنشق عنهم بأى حال من الأحوال ، أما اليوم فأنها حرة تماما ، متى شئت أذهب ومتى شئت أعود ، بإمكانى اختيار المطعم الذى يستهوينى مكانه ، متى تعبت يمكنني أن أجلس فى أحد المقاهى المنتشرة بكثافة على جانبي الطريق ، أتناول الشاى مع قطعة بيتزا بالجبن اللذيذ ، فقسط من الراحة سوف يعينني على استكمال رحلة هذا اليوم ، ومعى كل الوقت لأبتاع الميداليات والأيقونات هدايا للأهل والأحباب ، أما الذهاب مبكرا جدا فمحبب إلى نفسي لأن خطوتى باتت على مهل رغما عنى ، إذ ربما يصطدم بى أحد الشباب فى الزحام عن غير قصد ، وحينها لا يجدى الاعتذار ، ووضعت لنفسى برنامجا مناسبا أعرج فيه على السفارة المصرية بالفاتيكان ، أما هديتى إليهم فنسخة من ثلاثية السلام باللغة العربية ، ونسخة من ذات الكتب المترجمة لعدة لغات من خلال مركز الترجمةبالأزهر الشريف

كـان أول مـالفتتنى فـى الفاتيكـان المبـانى المهيبـة ، ومنهـا كنيسـة القـديس بطرس ، فضلا عن متاحف الفاتيكان والمعـارض الفنيـة التـي تضم تحفـا ثمينـة ونادرة أنتجت فـى عصر النهضـة لكبـار الفنـانين ، جمعهـا البابـاوات علـى مـر العصور ، الفاتيكان أصغر دولة من حيث المساحة وعدد السكان فـى العـالم ، وتقع فى قلب العاصمة رومـا التـى تحيطهـا من كـل الجهـات ، ويفصلها عنهـا أسوار خاصة، أدرجت الفاتيكـان بكاملهـا علـى لائحـة اليونسكو كإحدى مواقع التراث العالمى .

المعالم الرئيسية

كاتدرائية القديس بطرس:

وتعتبر أكبر كنيسة فى العالم ، تمتاز بفخامة هيكلها المعماري ، وبها مجموعة من القطع الفنية الجميلة والنادرة ، أما الأبواب فبرونزية ضخمة القبة وتصل الى مائة وتسعة عشر مترا ، ونظرا لحجم الكنيسة الهائل فهى تستوعب ستين ألف شخص ، بالإضافة الى القصر الرسولى ويشمل عدة مبان منفصلة ، سكن البابا ، وقاعة الاجتماعات الرسمية، مكتبة الفاتيكان والمتاحف ، وأيضا حدائق الفاتيكان.

أما الطابق الأرضى من واجهة الكاتدرائية الخارجية للكنيسة فتزينه أعمدة كورنثية من الرخام الأبيض ، وقبالة الباب الرئيسى يوجد تمثالان

للقديسين بطرس وبولس ، أما الطابق العلوى فيسمى طابق البركات لأن يحوى شرفة يطل منها البابا للمرة الأولى لدى انتخابه مانحا بركته الأولى وللكاتدرائية خمسة أبواب لكل منها استخدام مختلف، يتوسط الكنيسة مذبح الاعتراف القائم فوق ضريح القديس بطرس مباشرة ويعلو المذبح مظلة «برنينى» البرونزية ، تحت الكنيسة يوجد سرداب يضم العديد من المقابر التى تأوى بعض رموز العصر القديم يمكن زيارتها لكن مع المرشدين ، أما الساحة الكبيرة أمام الكاتدرائية فلها شكل بيضاوى ، وأما جدارا الساحة فيأخذان شكل أربعة أروقة من الأعمدة الإغريقية ، والساحة مرصوفة ببلاط جرانيتى أسود ، يتوسطها مسلة بارتفاع خمسة وعشرين مترا على ظهر أربعة أسود برونزية .

متحف الفاتيكان :

القسم الأول : هو معرض الفنون وفيه الأيقونات واللوحات خلال مراحل تاريخية مختلفة على سبيل المثال : لوحة التجلى لرافائيل ، ولوحة القديس جيروم فى البرية لليوناردو دافنشى ، وعدد من الأعمال الأخرى لسائر فنانى عصر النهضة .

القسم الثانى : متحف الفنون الحديثة ويشمل أعمال الحقب التالية لعصر النهضة ، مثل لوحات كارلو كارا ، وجورجيو دى شيركوه.

القسم الثالث : متحف النحت ويتكون من أربع وخمسين صالة وهنالك عرض للمنحوتات والقطع الأثرية التى يمتلكها الفاتيكان ، وتعود إلى الحقب الإغريقية والرومانية ، وأيضا عصر النهضة ، والى جانب القطع الدينية المسيحية ، هناك القطع الوثنية لهرقل وأبولو وكذلك الفرعونية ، بالإضافة الى عدد من المقابر ولوحات الفسيفساء التى تعود الى ماقبل الميلاد ، وهناك متاحف أخرى بالفاتيكان كمتحف الصليب ومتحف خاص بالتماثيل الضخمة ، ومتحف لمجموعة التحف المصرية القديمة من أوراق بردى ومومياوات حيوانية ، وكتاب الأموات الشهير فى الحضارة الفرعونية، ومتحف آخر به أكثر من ثلاثة آلاف قطعة نادرة لا يفتح إلا لأغراض الدراسة ، وأيضا قاعة للخرائط تظهر تطور رسوم الخرائط خلال تاريخ البشرية .

مكتبة الفاتيكان :

وبها خمسة وسبعون ألف مخطوط أغلبها نسخ أصلية بخط اليد لأعمال نادرة فى التاريخ البشرى ، كتبت بعدة لغات أبرزها اللاتينية واليونانية ، والبعض الآخر باللغة السريانية بالإضافة إلى أكثر من مليون كتاب مطبوع بمختلف اللغات ، وتعتبر مكتبة الفاتيكان مركزا لعلوم اللاهوت والقانون والفلسفة والشعر والتاريخ ، وإجراء الدراسات وأيضا المكتبة الفلكية للفاتيكان تعتبر ضميمة لهذا التراث.

أرشيف الفاتيكان السرى :

هو مستودع خاص لكافة الوثائق والمراسلات الصادرة والواردة إلى الكرسى الرسولى خلال مراحله المختلفة .

المتحف المصرى :

عبارة عن تسع غرف ، تحتوى على التماثيل الرائعة من الفن المصرى من الألفية السادسة وحتى القرن السادس قبل الميلاد ، أما أهم المعروضات التى يتضمنها المتحف فهى : البازلت والتوابيت الخشبية ، تماثيل للآلهة الفرعونية ، النقوش والكتابات الفرعونية ، وتماثيل للآلهة الحيوانية ، فى كل مكان بالعالم أزهو بآثار بلادى وأفتخر .

صوب السفارة مرفوعة الهامة

والآن حان موعدى مع السفارة المصرية ، فيالها من لحظات سعيدة ، يالها من عودة حميدة إلى الوطن الأبى حتى ولو كانت من الزمان ساعة ، أرتجى من روح مصرنا بهجة ، عزة وشموخا ، وطار قلبى صوب السفارة مرفوعة الهامة ، ولاح لعينى علم بلادى فصافحته ، ثم دعوت الله أن يظل خفاقا حتى المنتهى ، يرعاك ربى ياأرض المعز ، ودلفت إلى الداخل فإذا الابتسام يعلو محيا المصريين أينما كانوا ، نحن المشهود لنا بالذوق والخلق والكرم ، اللطف وخفة الظل ، وهبنا الله نعمة التواصل والقبول ، قلت : أنا مريم اتصلت

بالأمس ، جئت بالموعد ، فكان الترحاب وروعة الاستقبال قبسا عبأ روحى بالفرح والفخر ، كأننى إلى مصر أعود عصفورا عاش بدوحة رياض ، لكن الغربة فى الكون سهم بالفؤاد وجفاء مريع ، أعود لأنهل أنسام الورود فتشرق فى جبينى الشموس دفئا وسحرا ورونقا ، أغنى بها وأمشى مرددة : بلادى بلادى لك حبى وفؤادى ، بلادى مارمت غير السلام والزهر الأبيض ،أطوف بنور الأزهر فى الدجى عهدا قطعته أشد عليه وثاقى ، أستقى من نبع الإله الحب ، وكل حب إلى زوال إلا حب الوطن ففى الدماء يسبح ، قدمت للسفير هديتى التى استقبلها بالغبطة والسرور فاستبشرت خيرا كثيرا، حدثنى عن علاقته بأصدقاء طفولته المسيحيين الذين مازالوا بالوجدان لم ينقطع التواصل بينهم رغم بعد المسافات وعن ذكريات الزمن الوردى ، فقد لمع فى عينيه البريق حينما تذكر مدام إيفون وزوجها الأستاذ جرجس ، وهما الجاران اللذان لم يرزقا بأولاد، وكأن الله أراد أن يعوضهما فاعتبراه ابنا لهما ، أما هو فصار بارا بهما ، يحرص على زيارتهما كلما سنحت له الظروف ، وباتت الكتب بيننا الأهل والسكن ، إنه الحنين لأم الدنيا ، سحرها وضوضائها ، وفاء ناسها ، مصرنا التى نسأل الله أن تبقى على الأزمان مخلدة .

أبهرنى إعجابه الشديد وتقديره لما أنجزت في ثلاثية السلام وكأنى ارتقيت السحاب ، وأرسلت عيناه وميضا جميلا يثمّن دور فضيلة الإمام الطيب كراعى سلام للعالم على امتداده ، تجمعه ببابا الفاتيكان محبة عظيمة وتوافق قلما يجود بمثله الزمان ، بين قلبيهما ألفة وصدق فالحب فى الأرواح جنود مجندة ، كان السفير فخورا بتلك الخطوة

وقال : إن البابا الذى شرف بمقابلته سوف يثمّن هذا العمل الجاد فى ظل الإرهاب الذى استشرى فى معظم دول العالم نتيجة غياب الوعى ، واستغلال بعض الدول حاجة المتشددين للمال فيصبح من السهل بمكان تنفيذ مخططاتهم عنوة دون وازع من خلق أو ضمير ، والنتيجة موت الأبرياء .

مر الوقت كالنسمة الندية ، وتوسمت أن تكون صورتنا التذكارية إلى جوار العلم ، ونسر يتجسد فيه الحلم والحسن المتفرد .

ودعته على أمل العودة بلقاء جديد بإذن الله ، وأكملت يومى بشراء البطاقات والميداليات ، وفنجان للقهوة مطبوع بصورة البابا الذى أحببته قبل أن أرى عن قرب قداسته ، لكنها سويعات وأصافح صرح القداسة فى مراكب النور .

أنهيت يومي الثانى بغداء شهى فى مطعم أنيق للأسماك ، ومن أجل الآيس كريم اللذيذ كسرت النظام الغذائى على أمل العودة إلى الحرمان فى اليوم التالى ، قبل النوم وجدتنى طفلة بليلة العيد ، تلميذة بأول يوم دراسى سعيدة بالألوان والطباشير ، تهفو للدرجة النهائية بالكراريس ، من الفرحة أقفز بالنجمة التى تطبعها الأبلة أسماء فى كراسة التعبير ، الآن بات علي تجهيز بدلتى ومعطفى ، جواربى وحذائى ، أقراط اللؤلؤ وخاتمى الفيروزى ، الكتب فى حقيبة هدايا تليق بها ، وما علىّ الآن إلا النوم مبكرا ، غدا ستكون السيدة «باولا» على باب الفندق فى الثامنة ، المواعيد في الغرب بالثانية ، غدا لا يحتمل أى مفاجأة ، ياربى .. أسألك الستر ولا شىء غيره .

الأربعاء ضياء

عند السادسة دق جرسان فى ذات التوقيت ، هاتف تليفوني المحمول وجرس الهاتف الأرضي ، فقد تركت خبرا للاستقبال بضرورة إيقاظي عند السادسة ، يافؤادى طال انتظارى لشمس الأربعاء أرنو للموعد تظللنى سحابة بيضاء ، فتحت ستائرى فهالتنى أسراب العصافير :

- يا صباح النسيم والفجر الرقيق ، ياصباح الجمال ونفح العبير.

- طال انتظارى لبارقة السلام أيتها العصافير .

- أقبلى بالكتب والأزهار ، انتشى فالفرح آت ، ولى الخريف والغيم والرياح فليالى الصفو فى صدى الجدول يا مريم .

- سأظل ممتنة لقائد السرب النبيل ، قبلة البهجة الساكن بالعروق ، وغدا أسوق بالضاد الدليل .

- إلى لقاء قبل الغروب .

هرولت إلى المطعم بملابس عادية ، فقد خشيت أن تسقط قطرة من القهوة علي القميص العاجى فتفسد نصاعته ، أو تترك أثرا باهتا يجرح خاطرى فتشوه النقاء بداخلي ، طاب لى الفطور وراقت لي القهوة ، الساعة مازالت السابعة ، وإلى غرفتى هرعت لأكمل مابدأت، نصف ساعة وصرت بكامل أناقتي ، طالعت مرآتى ربما لمسة بهندامى غفلت عنها بسبب تعجلى ، الآن بات كل شيء يرضينى ، وقررت الانتظار علي المقعد الأقرب لباب الفندق استعدادا لطيوف المحبة والنور ، فمتى دلفت السيدة «باولا» كسبت من الوقت الثوانى ، اليوم تتويجا لمشوار صعب طويل ، اليوم بالنسبة لى هو الحدث الأهم ، يارب فلتتمم يومى برضاك على كل الخير.

وباتت عيني لا تحيد عن باب الدخول ، بشغف أطالع الآتين والغادين فى انتظار «باولا» ، أو بالأحرى فى انتظار الدعوة والتى بدونها سأعود أدراجي والأشجان في صدرى ، بدونها الصخر والموج والنيران ، فيارب بعين الرأفة والرحمة لا تدعنى حطاما ، فتغتال في عيني كل أحلامي ، وعند الثامنة سرت رعشة بالفؤاد جمدت أطرافي ، جف حلقى فكدت أفقد النطق والوعى ، الثامنة وخمس دقائق ، وسبع دقائق وثمانى دقائق ، أين أنت يا باولا؟ رجاء لا تزجى بى فى أتون اللهب ومازلت على قيد الحياة ، ألا تعلمين أن دبيب الخوف بعقلى ينثرنى الآن أشلاء وأشلاء من فرط الخوف؟ ياإلهى ليس لى إلاك عونا ، ياإلهى أين التى وعدتنى بالمجىء والوقت يمضى كخاطف البرق

مازالت هناك إجراءات للتفتيش ، ومسافات طويلة على ظهر سلحفاة أمشيها ، وتقترب الساعة من الثامنة وعشر دقائق ، لم أعد أقوى على السكوت ، قفزت من فورى كأن قوسا شطرنى ، أسأل موظف الاستقبال أن يتصل فورا بهذا الرقم الذى حفظته عن ظهر قلب ، يستعلم من السيدة الإيطالية حقيقة الأمر ، فحدثها بلهجتهما ، ففهمت بالإحساس أنها باتت على مقربة من الفندق ، دقائق وأطلت بخطواتها المتسارعة تتعجلنى وقد حملت عنى الكتب ، وإلى جوارها جلست ، فمدت يدها بمظروف الدعوة التى التقطتها بكلتا يدى ، كأنى بعثت بعد موت ، فدونها كسر الخاطر وكسر الخاطر أشد من كسر الظهر ، شكرتها فأبدت اعتذارا أن الزحام كان السبب فى عشر دقائق تأخير ، لا تدرى أنها أنتقصت من عمرى عشر سنين من الرعب ، فلو كانت الدعوة بيدى

ما انتابتنى لحظة من القلق ، سأذهب بمفردى ، أما حمل الكتب فتتضاءل المشكلة أمام الحرمان كليا من اللقاء المرتقب ، وما إن وصلنا ساحة الفاتيكان حتى قدمت «باولا» اعتذارا ثانيا ، فلن تتمكن من مرافقتى للداخل دون دعوة باسمها ، كررت شكرى الجزيل لمحبتها واهتمامها ، وأكملت سيرى بمفردى ، ولاحظت أنه كلما أبرزت دعوتى انفرجت أسارير القائمين على الإجراءات الأمنية المشددة ، لاحظت اهتماما كبيرا من القائمين على اللقاء فهذا يوجهنى وهذا يسير معى بضع خطوات ، وذاك أتكىء عليه وقد حمل عنى الكتب ، وما إن وطئت قدماى القاعة الرئيسية حتى توقفت لحظة إجلالا للمشهد ، أعداد غفيرة من كل فج عميق يتخذون مواقعهم بالقاعة الضخمة ، تصفيق وهتافات بكل اللغات ، قدمت الدعوة لأحد منظمى القاعة ، سألنى عن اسمى ، وما إن قلت «مريم توفيق» من مصر حتى علت البسمة ملامحه ، بسمة عريضة لن أنساها ماحييت أبدا فقد عرفت مغزاها بعد ، اصطحبنى وكان المقعد الوحيد الشاغر بالصف الأول هو مقعدى المعد باسمى ، جلست وقد امتلأت بفرح أزال عنى فى لحظة كامل توترى ، الشكر لك يارب والحمد ، ووضعت بكل فخر واعتزاز الكتب والعلم ، العلم الذى لا أفصله عن روحى أبدا ، فى سفرياتى أضمه ، أحتمى به ، ثم يقاسمنى مع الطيور كل الصور ، الشكر لك كل لحظة يارب الوجود ، فكم بذلت من الجهد لأصل إلى هذا المكان الذى امتلأ عن آخره بالحب ، وطلبت إلى من تجلس بجوارى وكانت سيدة من «السويد» أن تلتقط لى صورا مع كتبى وعلم بلادى قبل البدء

وبمنتهى اللطف والرقة كان لى ما أردت ، عدد من الكرادلة والقساوسة والشمامسة يجوبون القاعة ، المصورون كثر فطلبت إليهم أن تكون صورى مع قداسة البابا جيدة سأبتاعها كاملة ، فرجاء محبة لا تبخلون علىّ بأروعها وأجملها وأغلاها وكل ما يذكرنى بنقاء هذا اليوم ، والأهم لحظة تسليم قداسته كل الكتب ، وجاء الرد بكل خلق رفيع وذوق :

- فى كل الأحوال نوثق كل المقابلات صوتا وصورة ، اللقاء سيكون رائعا فلتطمئنى يا سيدتى .

- كلى ثقة أن اليوم زهر وفجر ، شعر ونثر ، ولكم الشكر الجزيل أما صدى التراتيل فبات يعلو ويعلو ، وفرق الكشافة تعزف إيذانا بدخول الحبر الأعظم من الباب المعد لقداسته ، ياربى بت على مقربة من لقاء عز مطلبه ، ياربي ساعدني وأنا أتحدث الإنجليزية فلا أبحث فى القاموس عن مفردة صعبة لا تفى بالمعنى المراد ، ياربي أود أن أسترسل بلا قيود ، وبينما أفكر فى حل أخير للمعضلة ، هدانى تفكيرى أن أهمس لأحد الكرادلة الأجانب وكان يمر أمامى ذهابا وإيابا فقلت : من فضلك جئت من أرض الكنانة لأهدى البابا فرنسيس أعمال السلام التى ترجمها مركز الترجمة بالأزهر، ألا يوجد بيننا من يقوم بالترجمة من العربية إلى الإيطالية ؟ فأشار إلىّ إشارة مفادها ، صبر قليل ، ومشى بخطى مسرعة نحو المنصة ، وكان يجلس عليها صفان من المطارنة ، تحدث إلى أحدهم فترك مكانه وأتى معه على عجل ، دار ببصره يبحث عمن يحتاج المساعدة ، فأشرت له ، وكأنه المنقذ فى عرض اليم ، وما إن وقعت عيناى عليه حتى لمحت النيل وقد خط ملامح وجهه فقلت على الفور :

- من مصر جاءت مريم ، بين يديها لفائف حب ، ملء السهل ، ملء الجبل .

- سأترجم ماتقولين اليوم ، أدرى عن أمر وجودك يامريم اليوم

- يا للحظ الرائع ! دريت أن قدسك ستكون بمصر حتى اليوم فحملت الكثير من الهم .

- جئت فقط بالأمس .

- من رضى الرب علىّ .

- رجاء يا أبانا اليوم أهم أيام العمر ، فلتكن إلى جوارى حتى أنتهى من تقديم الوعد المنتظر عن النجم والغصن فى بستان الزهور، بلون الفرح صغت نفحة الخير وعشق كل جميل ، فيحتسى العالم الرضاب الرطيب ، رجاء لا تتركنى أبحث عن مفردات لا تسعفنى ، لقد حُمّلت برسالة من مولانا الطيب ، وكلى أمل أن تلقى لدى الفاتيكان صداها الطيب.

- وعدتك بألا تقلقى كل شىء معد له سلفا ، ألا تلاحظين أنك أول من ستلتقى بقداسة البابا ؟ مقعدك ظل شاغرا حتى وصولك.

- يا ابنة بلدى العزيز .

- سعدت بلقائك أبونا يوأنس ، بك قلبى اطمأن.

- قبل أن يترجل البابا نحوك ستجدينني إلى جوارك ، قولى لقداسته كل ماتشاءين ، سيكون سعيدا بهذا الإنجاز المقدر والكبير .

- عاجزة عن الشكر ، رجاء أرغب فى صورة الآن أوثق بها تلك اللحظة السعيدة وبيننا كتب السلام ، لقد عادت إلىّ سكينتى ، عاد إلى هدوئى ، فشكرا جزيلا اليوم والغد .

وأومأت للسيدة السويدية الرقيقة المشاعر أن تلتقط لى مع أبينا يوأنس أكثر من صورة ، رحبت وزادتها البسمة جمالا على جمال ، بل من فرط رقتها كانت تعدل من هندامى ، تطلب منى الابتسام ، لتخرج الصور على مايرام ، كان الشكر لها موصولا ، وكم داعبت رضيعتها التى ارتمت كثيرا بأحضانى .

- أبونا «يوأنس» من فضلك ، تلك صور أحفادى ، أطمع فى بركة سيدنا لأفرح بناتى .

- البابا لا يتأخر أبدا ، الملاك يعشق الملائكة ، سأكون إلى جوارك يامريم حتى تنتهى من الكلام مع قداسته ، والآن أستأذنك فالنور والفراشات تنبئنا بقدومه .

- تفضل ، ورجاء ألا تنسى «مريم » .

وعاد إلى المنصة الأب «يوأنس» هذا الشاب الذى يمثل وجه مصر العظيم خلقاً وتواضعا ، وكرما طيبا ، تعالت أصوات التراتيل مجددا معلنة أن حبيب كل الجموع بات صوب الباب ، أدرت بصرى فإذا بالأكف على الصفين تمتد إليه ، تبغى بركة وسلاما ، أما قداسته فلم يستثن أحدا ، رحب بالصغار قبل الكبار ، وترك من يطمع فى صورة سيلفى بأن يكون له ماأراد ، كل ذلك رغم العدد الهائل من رجال الأمن الذين يطوقونه خشية التعرض لمكروه من أهل الشر ، وراح يرضى الكل ، عذب الابتسام آسرا للقلب ، وبكل الحنو الشفيف يربت على كتف الأطفال ، يحتضن المرضى والمعاقين ، عشرات العرائس مع أزواجهن جئن بأثواب الزفاف لتكون بداية الحياة الزوجية بمباركة الحبر الجليل ، تطوقتهم الملائكة والرسل الأطهار المكرمين ، وبرغم تعالى الأصوات بالشعارات المحبة بقيت الضحكات على ملامح قداسته زهرها برعم آن له أن يتفتح ، أما رفيف الطير فاصطف حوله والبدر ، وإلى المنصة راح يتخذ موضعه ، وجلس الجميع ينصت لكلمة الحبر الأعظم ، والتى توقعت أن تكون عن قراءات إنجيل هذا اليوم ، فإذا به يتحدث عن الأقلية المسلمة من «الروهينجا »والمضطهدين فى «بورما» ، والذين قطع من أجلهم المسافات رغم التحذيرات ، لكنه صمم أن يكون بينهم ليقول لهم : لستم وحدكم ، من أجلكم جئت أرفع الصلوات لله عز وجل ، من أجلكم أطالب بعودتكم إلى دياركم وأوطانكم ، لا للعنصرية ، لا للطرد ، لا للاضطهاد العرقى والدينى ، لكم كل الحقوق فى العيش الكريم ، ثم أقام قداسا إلهيا كبيرا من أجل نصرة المظلومين ، ترجمت هذه العظة بكل اللغات ، وعندما قيلت باللغة العربية لوحت بعلم بلادى ، فقد كنت المصرية بل العربية الوحيدة فى هذا اليوم المجيد ، أردت أن أثبت وجود بلادى الداعمة دوما للحق على مر العصور ، مصر التى لا تعتدى ولا تغزو وتعرف جيدا قيمة التعايش السلمى مع الجميع ، فلكم دين ولى دين، تخللت الكلمة هتافات فى حب البابا تؤيد خطواته نحو نشر السلام ، استقبلها دون تذمر أو امتعاض ، لم يطلب إلى الجماهير أن تكف عن المقاطعة ، بل كان يحييهم بكل تواضع من بعيد ، دون أن يتسبب فى إحراجهم ، فهو بالتأكيد يدرى كم تجشم هؤلاء عناء الوصول إلى الفاتيكان حتى يستمعوا إليه ، يسعدون بلقائه وجها لوجه وأنا منهم

وما إن انتهى من كلمته المؤثرة حتى ترك المنصة استعدادا للقاء من وُجهت إليهم الدعوات البرونزية وكانوا لا يتعدون خمسة عشر شخصا ، ودانت لى اللحظة البهيجة ، فأنا من سيبدأ بها اللقاء ، ولمحت الصليب الحديدى البسيط الذى لم يبدله يوما ما ، فالتواضع الجم جعله يرفض البذخ وحياة الترف وكل مايفرضه عليه الكرسى الرسولى ، البابا لا يقيم فى قصر بل فى بيت متواضع يطلقون عليه بيت القديسة «مارثا».

لمحت الأفق كله مرصعا بالنجمات ، بالأحلام والأضواء ، وبدت لعينى أطياف الفراديس الخضراء والواحة العذراء كأنى عبرت البحار ذات مساء ، سأترك قلبى يوجهنى ، فمن الصعب ياسيدنا فى حضرتك ترتيب الكلام .

ياليالى البهجة

ووقفت استعدادا للقاء ، فقد بات علي بعد خطوات منى ، على يميني كان الأب «يوأنس» الذى لم أشعر به قط حين جاء ، وبنظرة خاطفة لمحت السعادة الغامرة ، من عينيه يطل البهاء ، كأننا صديقان حميمان عادا ليلتقيا بعد أعوام من الغياب ، يالروعة الاستقبال وجمال اللحظة التى لم تكن لتمر على الخاطر أو البال ، قبّلت يد البابا تكريما لمقامه الرفيع ، وخشيت لبرهة أن أعجز عن طرح ما يجول بالفؤاد ، لكنه أزال بعميق محبته رهبة بدت أو بعض ارتباك ، وبدأت أسترسل فى الحوار بعدما وضعت كتابه في مقدمة الكتب ، (كلمات فى أرض السلام) الذى ازدهى بصورة الحبر الجليل يبارك مصر وشعبها النبيل ، النهر الغرير ، صليب

وهلال ، أهرامات وحمام سلام فى عناق إلى يوم الدين ، فامتدت يده يقلب فى الكتاب ، فحكت عيناه مصر التى فى خاطره ، فقد اعتبر قداسته زيارتها حجا مباركا عندما اعتمد رحلة العائلة المقدسة ضمن برنامج الحج لمليارى مسيحي على مستوى العالم ، مما يفتح آفاقا جديدة للسياحة المصرية ، وإضافة تاريخية لمكانتها السياسية والحضارية والاقتصادية والثقافية والدينية فى العالم ، لقد بارك قداسته الأيقونة الخاصة برحلة العائلة المقدسة كرمز ترويجى للرحلة ، ومما يؤكد قدسية مسار العائلة المقدسة في مصر أن دخولها جاء بأمر إلهى وليس اختيارا كما جاء فى الكتاب المقدس:

(خذوا الطفل وأمه واذهبوا إلى مصر) فمروا على خمسة وعشرين مكانا خلال إقامتهم التى كانت تتم بوحى من الله ، نعم مصرنا العريقة هى أرض الخير المباركة من السماء ، وكم كان البابا عطوفا وحنونا يربت على يدى وكتفى من فرط إعجابه بشعار مؤتمر السلام الذى صممه أحد العباقرة المصريين ، كم تمنيت فى تلك اللحظة أن أقف على سطح هرم خوفو ألوّح بعلمى الصغير حجما والكبير مقاما ، ليعلم القاصى والدانى أننى مصرية من أرض الجمال، مهبط الرسل الكرام التى علّمت الدنيا كل حكمة ، كل فن وكل دين ، تبقى على الأزمان مخلدة ، مُهابة ، فتهللت بالشموخ على أنغام :

عظيمة يا مصر يا أرض النعم يا مهد الحضارة يابحر الكرم
نيلك دا سكر جوك معطر بدرك منور بين الأمم
أرض الكنايس أرض الجوامع
أرض الجناين أرض المزارع
أرض المداين أرض المصانع عشتى يامصر يا أم الهرم

فباتت الثمار ناضرة على شجر الروح وقلت :

- من مصر الحبيبة جئتك ياسيدنا ، كم كنت أتوق للقاء قداستكم عندما شرّفت ديارنا المصرية ، لكن إرادة الله عوضتنى اليوم بلقاء أروع ، ولتسمح لى بداية أن أعبر عما يدور بخلدى فإن المصرى يعيش فى كنانة الله على الأرض كأروع مايكون ، المسيحيون أخوة والمسلمون ، الحب فينا راسخ كالجبال ، كأننا توأمان ، إذا جرح منا واحد تداعت لأخيه جميع الأعضاء بالسهر والحُمى ، بيننا كفاح وملاحم نضال صنعت لمصر أمجادا وأمجادا ، يشهد التاريخ كيف صان الأمانة أسد الرجال ، الفريق عبد المنعم رياض ، وفؤاد عزيز غالى حرر الذهب الغالى .

مريم القبطية سطرت بالدماء للإمام (كلمات فى جزيرة السلام)

العشق بيننا كالعبير ، كماء الحياة ، ورد الصباح وأنشودة السمر، المبتدأ والخبر، الحياة بيننا أجمل ونحن نمضى سويا بالوفاء نحو القمح والصفصاف ، نغنى للسواقى على نقر الدفوف ، نعزف للدروب :

وطنـــى وصـــبايا وأحلامـــى وطنـــى وهـــواى وأيـــامى

ورضـــا أمـــى وحنـــان أبـــى وخطـــى ولـــدى عنـــد اللعـــب

وتلك ثلاثية الحب التى مستها يد الأزهر الكريم بنفحة الإيمان وعشق كل جميل ، فباتت نبراسا لعشاق السلام ، أما شيخه الجليل فأى قصيد أقول ؟ الإمام «الطيب» يرسل تحياته وسلامه إلى الحبر الأعظم البابا «فرنسيس» ، متمنيا لغبطتكم دوام الصحة والسعادة ، يسأل الله تعالى أن تكلل جهود الفاتيكان بالنجاح من أجل السلام والإخاء والوئام للبشرية جمعاء

فقد صنعتما دون رياء عهدا من الوداد يستدام فى الأكوان بإذن الله ، دشنتما عصرا للحوار السامق ، سطرتما للورى صحائف نادرة ، فمن أجل ماذا يبقى الظلم فى الأرض منهجا فتفنى أرواح وتزهق ؟ تنشدان الأمان والجمال ، ببركات الرب صار العناق بينكما في أعين الكون كالخيال ، كم خشيت اللظى والدمار فهربت للأشعار ، قلبى يتقد على مصرنا كلما أحاقت بها الأخطار ، فجئت تحتوينا ياسيدنا رغم التحذير والإنذار ، من أجل ذلك إليك مشاعر براقة ، وكلمات تطرح العشب والأزهار، وراحت يدا قداسته تمتد للكتب المترجمة تتصفح الأغلفة والمحتوى وقال:

- شكرا لك يامريم ، أحييك على هذا العطاء المبهر ، شكرا لأنك قدمت نموذجا للحب والتسامح فى مصر والفاتيكان ، أما الإمام الأكبر فهو الشخصية الفريدة والمقدرة ، قلب كبير وهبه الله بصمة سعادة استطاع أن يحفرها فى أفئدة من يعرفه ، ومن لا يعرفه، من أجل التنوير يجوب كل الأنحاء ، أما العلاقة بين الأزهر والفاتيكان فخير مثال على المضى نحو الشراع الآمن ، اطمئنى يامريم ، وإلى مصر العزيزة منى كل التحيات ، والدعوات لله بالاستقرار والأمان ، أبلغى تحياتى الخاصة وسلامى للإمام الأكبر، جزيل الشكر على هذا الجهد ، شكرا على الكتب الثلاث ، الفاتيكان فى انتظار المزيد من أعمال السلام التى تبقى فى ضمير الناس نورا يضىء ظلام الأكوان.

- أطمع فى بركة لأحفادى قبل العودة إلى الوطن بعد غد .

- البركة لك ولأحفادك .

قالها وبين راحتيه صور الصغار ، تأملهم ، مال نحوهم ، ثم مسح على وجوههم كأنهم يجلسون إليه ، فتراءت لى لوحة السيد المسيح «له المجد» مع الأطفال وقد التفوا حوله يداعبهم بأبوة وحنان .

وقبل أن أودعه قدم إلىّ هديته ، علبة بلون قلبه الأخضر ، مددت يدى وأنا أقدم عظيم الامتنان ، تلك الهدية لا تقدر بمال ، ومن بعدى سوف تؤول إلى مريم أعز البنت .

انتهت المقابلة ، لكن لم ينته الحوار الممتد فى الآفاق ، مازال المشوار طويلا لحصد الثمار ، فإلى مزيد من الغرس الطيب ، نرويه بالحب وماء الورد .

- إلى اللقاء يامريم سلمى على مصر .

- بارك الله فى قداستكم وحفظكم من كل شر .

لملمت أشيائى ، هاتفى ، معطفى ، حقيبتى ، صور أحفادى التى صارت قطعا بلورية شفافة بنقاء أطفال البراءة ، كم كنت فى عجلة من أمرى لأكتشف ماذا بداخل العلبة الخضراء ؟ ماذا أهدانى حبيب الكل ؟ فوقعت عيني على مسبحة بحبات لؤلؤية ، يتدلى منها صليب فضى ، كم كنت بحاجة للدفء والأمان ، فجاء اللقاءورديا كعيد الفطر والميلاد ، وقبل أن أترك أرض النماء رفعت يدى بصلاة الشكر ، بصلاة من أجل الرب ، من أجل قطبين من أقطاب السماحة يرفعان للأخلاق كل لواء الطيب والنبيل ، فلتحفظهما ولتباركهما ياإله السماوات والأرض .

امنحهما القوة من أجل رفع اسمك القدوس بالحق فى كل مكان.

فشكرا لله الذى أعاننى علي البوح ، وكأننى أتغنى فى رياض وزهر شكرا للملائكة التي مشت بى الهوينى ، فلم أشعر بالتعب ، لشمس الضحى التي ناشدتنى ألا أخدع مجددا بالناس ، فالبعض يعطيك من طرف اللسان حلاوة ، ويروغ عنك كما يروغ الثعلب ، شكرا لإشراقة القمر في وجهى لغصن حنون لاح لعينى ، للمطر الذى حافظ على السلام من الغرق ، ليبقى مرجعا في الناس طول العمر تركت المكان لا شىء فى صدرى سوى قلب يحن إلى التلاقى ورجعت للفندق كالماء المسافر عبر دورات السواقى .

حديث الصور

ترى كيف السبيل إلي صوري اليوم؟ كان سؤالي إلي أحد المصورين قبل مغادرتي القاعة والذي أعطاني بطاقة بالعنوان ، ولم ينس أن ينبهني أن الاستلام من الثالثة حتى السادسة مساء ، وفضّلت قبل العودة إلى الفندق أن أشتري تذكارا جديدا ، فالبائعون لصور البابا وهداياه وهم كثر منتشرون في ساحة الفاتيكان بشكل جاذب للانتباه ، معظمهم من الأفارقة الذين يميلون في الحديث إلى المصريين فالقارة السمراء تجمعنا ، ما أجملها أقداح الشاي ، أما أقداح القهوة فقبل يومين ابتعت فنجانين ، ما أشهى فنجان الشاي مع البابا في الصباح الباكر ، والصحف تزف لقاءات قطبي الأمان ، حلوه يبقى بالحنايا

والأحشاء ، يالروعة العصافير على شجر البوح أمام شرفتي تبشرني بالقوافي البيضاء ، يكفيني طلة الإشراق من الوجه الصبوح ، إني أرى قباب النور دانية القطوف ، الله عليك يامن عبأت روحي الظمأى للرى بكل جميل ، وقبل أن أستقل سيارة تعود بي إلى الفندق، أوحى لي الحمام الطيب بأن أطعمه من القمح بعضا ، فكان له الأرز أيضا، وقف بعضه على كفي وكتفي احتضنته فأطربني :

أعطني الناي وغني فالغناء سر الوجود

هرولت إلي غرفتي أتصل بمولاي الطيب الأمين ، أطمئن فؤاده النادر الوجود أنني اليوم في حشد من الأعياد ، فيا إمام الناس صدى السلام حلّق اليوم في كل الربوع ، شرحت لمقامه الرفيع ملخص اللقاء الجميل لكن برؤوس أقلام ، من الحرص أخشى أن أطيل ، فإذا ماعدت للوطن عدت للتفاصيل ، وجاء الرد من فارس النبل العظيم كأعذب مايكون ، مولاي من عادته ألا يسهب في الكلام لكن كل حرف منه تهليل

من الفرحة لم أعد أشعر بتعب أو بجوع ، وعدت إلي رداء عمليّ من الجينز يمكّنني من التحرك داخل ساحة الفاتيكان عند الثالثة ، حرة أمرح في الآفاق ، أكاد أحلق مع الكروان وطائر البهاء على الأفنان نناجي رب السماء ، وسرت ببطء شديد ، فممنوع على السيارات الدخول ، اعتقدت في بادىء الأمر أن الصور لن تتعدى الخمس على أكثر تقدير ، فإذا بها قد تعدت المئة وعشرين ، كان الزحام غير عادي ، الكل يشتاق أن يكون بمعية قلب الملاك الطهور

أما الليل فقد بدأ يرخى ستائره ، ومريم يقتلها الظلام والوحدة فى الغربة ، تفحصت الوجوه ، فتوسمت فى إحدى العاملات بالأستديو اللطف والذوق فطلبت إليها أن تساعدنى على إنجاز مهمتى ، فالألم فى الفقرات صرخة ألم مكبوت ، وصدق إحساسى الذى لا يخيب ، فقد أبدت تعاونا زادته الصدفة جمالا عندما علمت أن اسمها «ريتا» ، وهو ذات الاسم لإبنتى البكر وتقترب منها أيضا بالعمر ، لكنها تفاجأت برغبتى فى طبع الصور كاملة ، فالأمر سيتكلف من المال الكثير ، فقلت : لا عليك ياريتا ، اليوم أوثق عامين من الجهد ، دعينى أسترجع اللحظات العظيمة ، لو تعلمين أننى عشت أسمى ما تصبو إليه العيون ، فقد بات عالمى يعج بالنور والحبور، ركزت ياابنتى فى ثلاثية السلام ولم أعبأ بالكاميرات على الإطلاق ، الصور فرصة لكى أستعيد الضياء بلا انتهاء من الألف إلى الياء ، متى عدت لأرض النماء زارنى طيف اللقاء .

وباتت الصور بين يدى كروتا بالحجم الكبير ، أما المال فيتضاءل أمام لحظة النجاح والصدق مع الذات.

شكرت «ريتا» على حسن صنيعها ، ثم أبلغتها أننى غدا أطير إلى قرية «كاشيا » موطن القديسة «ريتا» شفيعة الأمور المستحيلة لنوال البركة ، رحلة رتبها الفندق ضمن برنامج زيارتى بناء على رغبتى فى اليوم قبل الأخير ، فطلبت منى ألا أنساها بالدعاء ، وأمام أيقونة القديسة العظيمة أشعل شمعة على نية شفاء أمها التى ترقد بالفراش منذ عام ، طمأنتها أننى سأزور القديسة «ريتا » من أجل ريتا المصرية وشقيقتها الإيطالية.

عدت إلى الفندق أتأمل بلهفة كل صورة كستها الوداعة والنعماء، من سناها جلست إلى القرطاس والقلم لتنجلى على المنارة تلك الخاطرة :

قالوا : عن صرح القداسة قولى الشعر .

قلت : كلما ابتغينا الصفو والفجر الضحوك ، ندنو نحو شهد القلوب الظل والروض النضير ، فالروح إليك تهفو ، للقاء الأربعاء نسابق الطيور ، طبعناك فى الأحداق بسمة وورودا ، فى كل حين نردد قولك المأثور فنجود بالأشعار حبا فى الله ، فى الأبرار والصديقين.

بسمتك المورقة باتت زادنا من حين الى حين ، كلما ضمنا الليل، والليل مأوى المساكين ، هذا الركن الحانى طغى بالشوق ، بالحنين ، نمضى إليك نشكو نوة الإعصار فترفع للسماء صلاة تقول:

ياولدى لا تبال لصخب الأرض ودبيب الغرور

لا تشك الضيق والبؤس ، لا تصب الحزن بالكأس ، لا تله وتتكلف الضحك ، فالحق أنك بالأغلال مصفود ، إن طالت الأيام والسنون فالحب كل الحب ، الفرح والعيد مع الإله العظيم ، فاظفر به واطرب لحضنه قبل المغيب ، مع الرب كل شىء لك حتى المدى

من الدفء وشهد النبع يرويك ، إن تاه دربك وانساب دمعك كطير غريب ، إن جف نهرك فى الزمن الردىء ، من كفيه الشطوط ومراكب النور ، فياحبيب كل الجموع يابابا « فرنسيس ».

ستظل فينا أملا لنرجع إلى سير الشهداء والقديسين ، فالطريق الى السماء ليس معبدا ، فالجنة وقف على الخلصاء الطيبين

أيها الحبر الجليل .. فلتكن صلواتك قنديلا يهدينا الطريق.

كاشيا

قرية صغيرة تبعد عن روما نحو ثلاث ساعات ، بها دير للراهبات على اسم القديسة «ريتا» ، وكنيسة مازالت تحتفظ بجسدها حتى الآن منذ القرن الرابع الميلادى .

أزورها كلما سافرت إيطاليا لطلب شفاعتها وصلواتها من أجلى ومن أجل ابنتى التى نالت شرف اسمها ، في هذا اليوم وضعت فى اعتبارى أن أشترى أيقونة ذهبية للقديسة «ريتا» ، فقد فقدت منى أيقونتى التى اشتريتها عند الزيارة الأولى منذ أكثر من عشر سنوات ، مما أصابنى بالحزن العميق ، وكلما حاولت أن أعوضها لا يحالفنى الحظ ، لأنها لا تباع إلا فى بازارات قرية « كاشيا »، فاليوم فرصة

قد لا تتكرر فالأيقونة ثم الأيقونة، وما إن وصلت الدير حتى طالعت المحلات فهالنى أنها بالكامل مغلقة .

ياإلهى ماذا حدث ؟ هل أغلقت لأن الرحلات باتت نادرة مع وجود الثلوج ؟ أصبت بخيبة الأمل ، جئت من مصر للقاء البابا وشراء الأيقونة البديلة ، لكن من الأولويات الآن هو زيارة الدير للصلاة وتقديم الشكر لله ، لإشعال الشموع لخير كل الناس بلا استثناء ، الشموع من أجل درة الشرق ، من أجل الطيب فيارب باركه واحفظه من كل مكروه ، من أجل الأهل والأحباب ، الشموع لريتا وريتا والأحفاد .

يارب عانيت الكثير حتى أصل إلى «كاشيا» ، مازال الأمل بداخلى يطمئننى أننى سأعود وقد أجبرت ياالله خاطرى ، جلست مع السائقة التى رافقتنى نحتسى بعض الكاكاو الساخن فى يوم من أيام الجليد والصقيع ، قلت لها إن زيارتي اليوم لهذا المكان لن تكتمل بدون الأيقونة الذهبية ، كم كنت مستاءة من التفكير بأمر المحلات التى كانت دوما تنادى على الرواد فإن لم يكن للشراء ، فعلى الأقل للفرجة والاستمتاع بمنتجات الدير العامر بالحب .

اليوم لاترى عينى إلا أقفالا من كل شكل ولون ، وقبل أن أغادر وإياها المكان سألت الجرسون : هل من محل واحد مفتوح فأبتاع بعض الهدايا والتذكار قبل أن نغادر المكان حتى لا أعود إلى مصر حزينة ؟ فقال : ياسيدتى المحال أغلقت جميعها منذ زلزال عام ٢٠١٦ الذى ضرب إيطاليا وأتى على كل الممتلكات ، أصحاب البازارات يتألمون للخراب والدمار والجليد من الإغلاق برىء

ليس من السهل أن يأتى الزائر من بعيد ، ثم يعود خالى الوفاض ، على كل حال دعيني استطلع الأمر ربما قادنى الحظ فأجد من يحقق لك الآمال ، خمس دقائق وعاد إلينا مبتسما طمأننى أنه فى نهاية هذا الممر الطويل يوجد محل أضيئت أنواره ، لكن الأمر يحتاج إلى نزول عدد ليس قليلا من السلالم فى المنطقة الأثرية ، فطرت إليه وساعدتنى السائقة على اجتياز السلالم الصخرية ، ومإن دلفت إلى البازار ودون صباح الخير أو مساء النور ، قلت :

- أرجوك أيقونة ذهبية للقديسة «ريتا » .

ابتسم الرجل السبعينى ابتسامة مصحوبة بالدهشة ، فقد لاحظ لهفتى وصدرى من الخفقان يعلو ويهبط .

- لدى حبة هى آخر ما تبقى من الزلزال المميت .

أخرجها من الفاترينة وكانت بين مجموعة ضئيلة من الخواتم وأقراط الأطفال ، تأملتها فوجدتها هى ذاتها التى أبحث عنها ، قبّلتها بشدة ، ومن فرط السعادة كدت أقبّل أيضا البائع والسائقة .

- ضعها بالعلبة من فضلك .

فاندهش أكثر لأننى لم أسأله بداية عن سعرها ، بالتأكيد أنه اطمأن أننى لن أجادله ، فقد بدا له أن حصولى على ضالتى هو الأهم ، وضعها بعلبة صغيرة من القطيفة الحمراء ، وقلت : ما أروعك يا لحظة تحقيق الأحلام !

- لو تدرى ياسيدى كم قطعت من المسافات لأعوض مافقدت؟

- الله الحنَّان هو رب القلوب .

- لن أنساك ماحييت ، ما أصعب أن تفقد شيئا قد يبدو للبعض تافها لا يستحق كل هذا العناء ! لكن هناك أشياء إذا فقدناها تموت فينا الحياة .

- أنت من أين ؟

- من مصر .

- واضح أنك رومانسية أكثر من اللزوم .

- العواطف والأحاسيس من نعم الإله على الإنسان .

- أراك طفلة بأعوامها الخمسة ، دعيني أختار لبنت النيل هدية رمزية .

- أكون شاكرة .

- طبق من الخزف لمريم البتول .

- مريم العذراء أم النور ، وأنا مريم توفيق ، سلمت يمينك أيها النبيل غدا أمضي إلى الديار بفرح غير منقوص .

ليلة العودة إلى الديار

بعد ثلاث ساعات عدنا إلى الفندق ، وقبل أن تغادرنى السائقة أكدنا موعدنا إلى المطار في التاسعة من صباح الغد ، ولم يفتنى أن أحيى موظفي الاستقبال بالفندق ، أشكر القائمين على المطعم وركن الموسيقى الهادئة ، فقد لمست منذ الوهلة الأولى رعاية واهتماما واحتراما وتقديرا ، بذلوا كل جهد لإسعادى ، وتسهيل أمورى خاصة عند حمل حقائبى ، فقد كان هناك من يتلقى عنى الهدايا التذكارية التى كنت أعود بها بعد كل تسوق بمجرد دخولي إلى الفندق ، فهم على علم بمعاناتى والتى بدت جلية فى بطء خطواتى ، شاركونى فرحة لقاء البابا بعد عودتى فى يوم

الأربعاء ، طالعنا سويا الصور ، هنأونى كثيرا ، تجاذبنا أطراف الحوار فكم يعشقون قداسته ، يضعون صوره في كل مكان بفخر كبير، فهو الإنسان الذى على محبته الكل يجتمع ، وبدأنا نلتقط بعض الصور إلى جوار شجرة الميلاد المجيد ، وهدايا الكريسماس المبهرة ، فالعيد بات على مقربة ، والفندق يسعى لجذب الزائرين بالأضواء الحالمة ، وجاء لهم وعدي بأننى متي عاودت الفاتيكان مجددا ، فهنا بيتى ومكانى الذى أحمل له من الذكريات الطيبة مايكفى لعمل ديوان شعر جديد ، صعدت إلى غرفتى استعدادا للسفر إلى حبيبتى ، وجلست إلى نفسى أستعيد شريط رحلتى ، مابين قلق وخوف ، ألم ومسكنات ، صور وكتب ، ترجمة ، ندوة ، دعوة ، صقيع وجليد ، كل شيء تم على خير كما أراد الله ، والآن (ما أحلى الرجوع إليه !) كما يقول «نزار قباني» ، لكن الرجوع إلى الوطن الأم ، الوطن الذى شرفنى بانتمائى لترابه الزعفران ، الوطن أبقى وأغلى من الروح والنفس.

لم أنم ليلتى وفضلت أن أتدثر بشالي الذي اختلط فيه عبق الأزهر بعبق الفاتيكان ، جلست إلى شرفتى الواسعة ، أطالع القبة والنجمات الحبيبات ، أما القمر فهلال جميل يلوّح بالبدور ، ينبئنى أن القادم كله نور على نور ، لكنى أشفق على العصفور فى الغسق من أنات الرحيل ، الذكريات عندى لا تتوارى فى الحجب ، أستعيدها بكل التفاصيل متى شئت ، اليوم لا سور يحول بينى وبين القصيد ، لن أدع بعد اليوم عقلى بين شك ويقين ، لن أنكر أننى لم أهنأ بحياتى مثلما هنئت بنجاح مهمتى فى هذا الأسبوع ، والفضل لله من قبل ومن بعد ، فمتى رميت عليه أحمالى كان ملاذى ، فالشكر لله على نعمة الإيمان بأنه القدير ، والتى تقينى الخفافيش والحيات وكل المتلونين.

وكم خشيت أن تضيع الصور إذا وضعتها بحقيبة ملابسى فأفقدها تحت أى ظرف ، فقد حدثت ذات مرة فى رحلة العودة من مدريد منذ عامين ، لا أنكر أننى تسلمتها بعد أسبوع كامل ، لكنه كان أسبوعا كئيبا ، ظللت فيه مابين بيتى وأروقة مطار القاهرة ، حتى تملكنى اليأس ، لكن الحمد لله والشكر مرت الأمور بسلام وعادت حقيبتى إلىّ ، بالتأكيد لن أكرر التجربة ، الصور والأيقونة الذهبية لن تفارقا يدى ، على الأقل أجد ماأطالعه بشغف إلى أن يحين موعد الإقلاع إلى الوطن.

والآن لأخلد إلى سريرى فلا تضيع منى بهجة أعيادى إذا اضطرب النوم .

وداع

شكرا وإلى اللقاء قداسة البابا يارمز الوفاء ، كل الخطى نحوك أحسستها مرهفة طيف سرى فى الحنايا ينشد فيك طيور الحب والسلام ، تتجينا من هادر الموج والأنواء ، فقضيت أسبوعا بين ابتهال قيثار وظلال ، بين رفيف من الندى وحفيف أشجار فلا أملّ البقاء ، وادى الخيال ينضح بالجمال والدلال ، إلى اللقاء يا جنات طيبات من حسنها ارتقت بها الأشعار ، هكذا كان وداعى لروما من نافذة الطائرة .

يامصر:

يا مصر رسمتك فى الهواء قمرا ونجما للعمر الآتى ، سكنت القوافى والبحور ، فأغلقت عليك فؤادى لحن جمال وسرور ، تلك كلماتى لأم الدنيا

بعد الوصول إلى الرائعة أم الإباء القاهرة .

عود أحمد:

ومددت يدى إلى مفتاحى وقد عُبىء بفيض الألق ، دلفت بيتى بعد غياب أسبوع ، أشعل الشموع والقناديل وكل الثريا فى آن ، المصابيح الحالمة بالطرقات شاركتنى لحظة الانفراد بمريم ، ألبوم الصور ، الصليب اللؤلؤى ، بدلتى التى سكنت مسامى أريجها بات نسمة عشقت شذاها ، دعوتى التى لولاها لضعت فى ظلمة التيه ، كم وعدتها أن تكون باكورة ألبوم الصور ، الآن أعيد ترتيب أفكارى وأشيائى ، فقد تراءى لى درب البوادى والظباء والسّمر وليلى الساكن الحالم الهادىء ، لكنه درب ذات يوم عانقه المغيب ، فكلما حاولت إليه سبيلا ، فى طريقى ألقى الحاقد خناجر ونصالا ، ومنى كان الصمت القاتل ، وأعترف بأننى لم أبال بمن يلقى على حجرا ثقيلا ، أصد الرياح كى لا تميل ، فتضيق منافذ روحى ، وبين يديه أصير رهينة ، يقول السيد المسيح « له المجد » : (من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضا) ، قالها للتسامح ولم يقلها لاستغلال الشيطان للمشاعر البكر ، وقصدت ركنا طالما أعددته للتأمل وقراءة الصحف ، أطالع الدنيا أسائلها متى تعود العصافير ؟ ومددت يدى صوب رف يحمل صورة لأبى ، أناجيه ، أتحدث إليه ، أقول فيه : يامن علمتنى الرحمة حينما أمسكت بكفى الصغير فى الأسواق لنبتاع أولا من الفقير والطاعن فى السن

فقد لا يجد من يطعم صغاره ، ياابنتي إنـه البر بالمساكين ، علمتنـى ألا أدخر وسعا فـى نجدة المحتاج بصرف النظر عن الدين ، بك فطرت على التحدى فلا بأس من الفشل مرتين ، سأنفض عنى ماعلق بثوبى ، فالشروق بعد الغروب دائما ، ويوما قلت لي : فلتمض يامريم فى مسعاك النبيل ، فالعطاء شيمة كل كبير ، لا سبيل للضعف أمام الخصوم وأحجار الطريق ، صافحى الدنيا يا ابنتى ، وليكن مرجعك العمل ثم العمل إقتناعا وإخلاصا لمرضاة الله ، إن الله لن يضيع أجر من أحسن عملا ، ولكن أعذرنى اليوم يا أبى الحنون ، غابت عنى لفترة تعاليمك السمحاء ، وغاب معها سلام روحي ، أعتذر منك الأمس واليوم والغد ، تركت عقلى لمن وثقت به فى لحظة احتياج لشخص خاض تجربة مماثلة ، «عادل سمير» ليس أكثر من ثعبان كاد يلدغ حناياى بمعسول الكلام ، فيلقينى فى جب الأسود ، لم أكن أدرى أنه يسعى لتحطيم معنوياتى التى بنيتها لى على مدى سنوات عمرى العشرين فأصبح لك ياوالدى مصدر افتخار ، كم نسج من العنكبوت خيوطا من حسبته لمسة تشفى شقاء الجدب فى سفرى ، فكان الزيف والغدر ، فبات قلبى من اليأس لا يخفق ، كم لف ضلوعى بمخالب مكر لعين ، ثم اكتشفت مؤخرا أنه أستاذا في الرياء والتمثيل ، وكان صنيعه معى محاولة مكشوفة لمزيد من التربح غير المشروع .

فالى صلاة الشكر يامريم ، ولنصل ركعتين لإله العرش العظيم ، نعم العود أحمد .

زيارة خاطفة

عجلت بها إلى دار الوفاء ، فلن انتظر ، فمن لى سواه لأشكره على كل ماترك فى نفسى من طيب الأثر ؟ سوف أنقل له اليوم مادار بالحرف ؟ من السند والداعم لجهدى ؟ من الطيب أب عن جد ؟ من قطفنا به أثمار السلام في الشرق والغرب ، فيا مولاى يابشير المنى سوف تبقى قبسا ، كنزا عظيما أرسى للتعايش بين الأديان عهدا جديدا يبقى فى ضمير العالم للأبد .

- السلام عليكم فضيلة الإمام .

- وعليكم السلام وحمة الله وبركاته ، بشرينا يامريم.

- أهازيج الزهور الندية في اقتدار وعفوية ، ربوة الأحلام المقمرة ، نسجت منها أثواب الأمل عند الحديث عن الطيب ، نظمت فيه عقود الدر إبداعا بأسمى معانيه ، أسوار من الإشراق عانقت بهو الزمن ، أوراق الحقول وأنهار الرحيق مع الشهب كلها ازدهت بالنور ياشراع المجد ورمانة الميزان للوطن .

البابا فرنسيس يبعث للطيب بالتحيات ، بالشكر الجزيل وكامل العرفان يثمن دور فضيلتكم الرائد والراعى لسلام العالم ، يكن للإمام الأكبر محبة تعدت السحاب ، فاقت حدود الجبال ، قالتها عيناه حين مددت يدى بالجواهر مترجمة من خلال مركز الترجمة بالأزهر ، صرتما في عيون العالم رمز الأمانى ، بنعمة الإله تجاوزتما حالكات الليالى ، فى القلب لكما حنين واشتياق ، فيا طيب أقدار والشمس تغترف منكما السنا وألف شهاب وحين تعانقتما قرأنا إطلالة البدر قصيدة خلود يشدو بها الشعراء .

- حمدا لله على السلامة .

- سقيت الأرض ماء الزهر ، فطرحت ربيع كلمات فى جزيرة السلام قال القراء أنها أروع ماسطرت من ينابيع القصيد ، من حروفها غزلت طيوفا أجمل من هدايا العيد ، صدقتهم القول فصاحب مكتبة جزيرة الورد طلب أعدادا إضافية من الكتب ، وحين سألت علمت بأن وزارة التربية والتعليم قد أجازته ليبقى بمكتبات المدارس للطلاب يمتطون على صهوته أخلاقا تمور بالألباب والفؤاد من أجل ذلك جئت أبشر بالخير والحب ، أعيد الشكر لمولاى

أقول يامن داويت بك جرحى فالتـأم ، ويبقـى مـافى الـنفس عصـيا علـى الشـرح ، صـفات وشـيما ،عـذب حـديثك بـات فـى كـل فـم ، تجلـى بهـاؤكم ياوجـه التقـى والسـعد فـى الربـى سـفوحا وقممـا ، فلـولا رضـى الـرب مـا اقتربت من الـدار أقبّـل هذا الجدار وذاك ، بفضيلتكم لا عسر بعد اليوم ، سـعادتى تفـوق كـل وصـف ، والآن فلتـأذن لـى بالانصـراف مـولاى ، فقـد اسـتقطعت الكثيـر مـن الوقـت ، بمـداد مـن نـور أعـود لشـلالات المروج .

- الله المستعان يامريم ، فى أمان الله وحفظه .

- فى أمان الله ربان السلام .

معالى السفير لن أجد مايرقى إليك

وكيف لا أهرع إلى من كان سبب جنى الزهور من الكرمة ، حلو المبسم ؟ طرقت بابه أرجوه شراعا ، فأكرم الزائر بوجهه الوضاء وروحه السمحاء ، كيف لا أثمن لسعادة المطران «برونو موزارو» سفير الفاتيكان أفضاله التى لا تعد ولا تحصى ؟ من مد اليد بفراش الروض بعدما جافتنى الظلال ؟ كم شكوت إليه معاناتى مع الألم ، وعميق احتياجى إليه لأواجه إعصار التشتت والإرهاب ، فراح في الخفاء يصنع شراع الرجاء ، فباتت مريم صخرة شماء ، تغزل بالشعر قصائد عصماء .

وحملت أيقونة رمزية من هدايا القديسة «ريتا » أقدمها عرفانا إلى مطران وسفير الفاتيكان ، بعض الصور أيضا مع قداسة البابا فرنسيس ، قلبى المفعم بالحب أهديه لؤلؤة لسعادته ، لن تضيع من الذاكرة مشاركته النبيلة بندوتى في اتحاد كتاب مصر عن كتاب أرض السلام ، في لقاء عبقرى بشهادة الكل ، ظهر عليه البشر وارتسم ، أما حضوره الطاغى وكلماته الموضوعية فى صميم العمل، فقد جعلت كل الضيوف يكنون له مزيدا من الإعجاب والتقدير ، شخصيته المتفردة والمتواضعة وحرصه على متابعة كل ماقيل من نقد ومداخلات ، أثبتت أنه قارىء جيد ، ملم بكل مايدور على أرض مصر التى عشقها وأحبها من شرقها إلى غربها ، حينما اختار بعض المقاطع من كتاب أرض السلام وقع اختياره على تلك العناوين الجذابة فهو يدرى وقعها على قلوب المصريين (السلام عليكم ، مصر أم الدنيا ، مبارك شعبى مصر ، فى الأزهر دعوة للسلام) ليختتم كلمتة «بتحيا مصر» التى رددناها معه ، وكانت مسك الختام للدبلوماسي المحنك الذى استطاع أن يجذب إليه الأفئدة قبل العقول ، إنه قلب الذهب المطران ورئيس الأساقفة «برونو موزارو».

- طبت صباحا ياسيدنا .
- أهلا وسهلا ، القهوة يامريم قبل أى حوار .
- كل الشكر على كرم الاستقبال .
- لأحتسى وإياك قهوة إيطالية.
- شرف كبير أن أكون بحضرة ملاك برتبة سفير للفاتيكان .

- بشريني كيف كان لقاء البابا ، أرى فى عينيك نفحة الغبطة والسعادة كأنك شابة ترنو إلى العشرين؟

- إليك من الصور بعضا ، ربما شرحت تفاصيل ماكان بالأعماق .

- كثيرة جدا تلك الصور ، معنى ذلك أن قداسته أولاك من العناية الكثير من الاهتمام والكثير من الوقت .

- من أجل ذلك جئت لتقديم واجب المحبة وعظيم الشكر للصديق وأنيس العمر الذى لولا دوره الإيجابى لماتت فى مهدها الأحلام ، من أجل ذلك أدعو لك ياسيدنا بربيع أيام يبقى مدى الدهر .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أنوه عن عميق تقدير البابا ، محبته ولطفه وحنانه قبل أن تمتد إليه يدي ، تفاجأت حتى اغرورقت بالدمع عينى ، وعن أمر الكتب فقد اكتشفت أن فكرة عنها قد آلت إليه ، كل مافى الأمر أنه طالعها ، قلب أوراقها على مهل ، ولسان حاله يقول : ستبقى مرجعا ، ولمحت إعجابا بها ووجها نيرا ، خاصة عندما وقعت عيناه على صورة أم الإباء القاهرة ، يرفرف منها ممشى المسيح والعذراء ، فهز ضلوعي وحواها حين تركنى أسترسل ، وما إن انتهيت من كامل حوارى حتى باركنى فطلبت صلاة من أجل شفائى ، بارك أحفادى ، ثم أهدانى مايبقى بأعماقى عنوان الرضى والنور ، مسبحة فضية تبارك خطاى ، بمخدعي تنام ، تقينى شر الخوف كلما حل الليل البهيم ، تدعونى لمزيد من البذل فيهب السلام كالغيث على كل الجموع .

- لم أكن أود أن أقول السبب الحقيقى لكل هذا الاهتمام ، بل كل هذا الحب .

- سمات الأنبياء التواضع تفضل سيدنا ، أتوق فعلا لمعرفة سر تلك الحفاوة التى تركت بصماتها بأوردتى وشراييني ، وكأن الشمس فى تلك اللحظة آثرت أن تتعامد على وجهى

- أرسلت بالإيميل أزكيك ، قلت شاعرة مصرية حضرت مناقشة كتابها الرائع بين لفيف من المثقفين والشعراء ، وأبهرني رد فعل النقاد خاصة أقطاب الأزهر الأجلاء ، أسعدنى كم الحضور الذى أثنى عليك إنسانة محبة طرقت بابا لكل جمال ، وعن العلاقة الأزلية بين إخوتك المسلمين قدمت المثال الأروع .

وقلت أيضا إن الأزهر يجنح للسلم دوما ، وهذا جد صحيح ، والدليل أنه كلما التقى الرجلان التقيان تهللت أسارير العالم بالرضى، وبات اسماهما في العلا ، من أجل ذلك أطلب دعوتك إلي الفاتيكان بلقاء الأربعاء ، البابا فرنسيس حصيف اللسان يدعو للسلام بالبذل ولو بالكلمة فتصفو للناس الحياة.

- من أجل ذلك حمل الدعوة إلىّ طائر الحسن دون إبطاء ؟ قليل لك (شكرا) ياسيدنا .

جمال روحك مابرح يفارقني أسبوع السفر ، أحييك ولا أوفيك من كرم أهديته لي دون علمي ، ستبقى دوما ملاذا وذخرا ، أدعو الله فى كل آونة أن تبقى أشجارك يانعة ، ترعى السلام فى مصر وفى كل أرض .

مكتبة الإسكندرية

لأهديها روائع ما سطرت ، منها الوصل بين الحضارات شرقا وغربا ، صرح للثقافة عظيم بالفنون ، بالتاريخ والفلسفة والعلوم

ياله من منبر سلطت الأضواء عليه ، فقد زها برموز النقد الأدبى ولفيف من أحباب الأزهر الوسطى ، فى ندوة على هامش معرض الكتاب الدولى كان طيبُ القول عن طيّب الأصل ، عن الود والهدى ففاض المورد .

قرأت من شغاف الفؤاد عن الطيور بليل شفيف فى ساحة الفاتيكان ، عن سوسنات أينعت بالفؤاد كلما ألم بنا جرح .

والآن سكن الريح واكتمل البدر ، فيا مصر سأظل على وعد وقصد ، ببوح جديد للصباح ، للنجاح ، للسلام ، ننعم بسلاسل المنى ، نعانق كل واحة وعلى مسامع الأجيال نتلو صحائف سطرت بالذهب ، حتى إذا ما أقبل الفجر ، هللنا بالدعاء ، قسماتنا نور مشرق بالبهاء فيزهو بنا الزمان عزا وسناء.

تحيا مصر

فى البدء مصر ، كنز السماء والأرض ، فى إنجيلى وقرآنى هى الحب المتفرد ، المعنى والعنوان ، نسمة من العطر والوئام ، البدر فيها طول العام ، ترقد بين الجوانح وتتأرجح فى العيون ، أبتهل إلى الله «عز وجل» أقدم له الشكر فقد خص وطنى بالإعجاز والإنجاز ، بشعب طيب الأعراق ، فيا درة الشرق أنت نورى ودفئى ، أمانى ولحن غرامى ، كل حرف منك تهليل ياوطن الخلود ..إنى أحبك عد الرمال ، أحبك ملء البحور وحب الزهور للأمطار ، تحيا مصر مدى الدهر ، عذب القوافى مجد وفخر .

والآن :

والدجى يرخي سدوله، أفكر بشمس الأصيل تسطع بالأفق فكل شيء عاد نديا، تحمل الحب الهنيا ، فالدنا نور وأشذاء، فهيا نبشر بالسلام في الربى الخضر، في كرمة الأحلام ، على غصن الهوى تشدو الطيور بما في الخاطر، فيهتف القلب للفجر الذي أرسى نداء الفرح في روحي فلا يُنسى، غداً نموج بشهد اللقاء في الأزهر والفاتيكان، فيعلن الورد مولد الضوء فننشد، تاج الجمال أنت يا درة الشرق.

الشاعرة فى سطور

مريم توفيق
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو جمعية الأدباء.
- عضو نادى القصة.
- عضو المنتدى الثقافى المصرى.
- عضو جمعية الكاتبات.
- عضو رابطة الأدب الحديث.
- عضو اتيليه القاهرة.
- عضو رابطة التربية الحديثة.

*** صدر لها :**

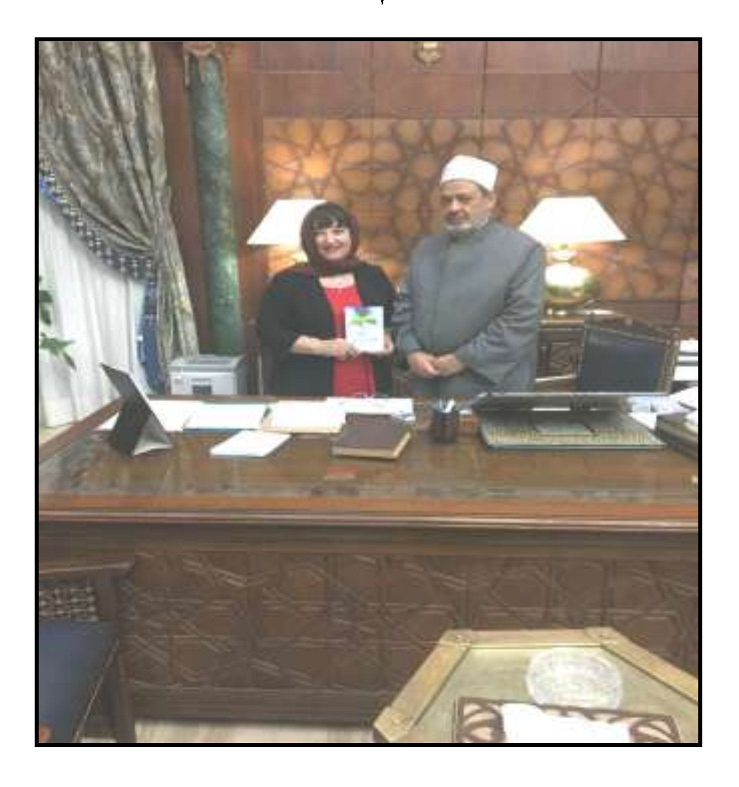
- عزف على أوتار العشق	شعر فصحى
- أزهار الخريف	شعر فصحى
- قوس قزح	حوارت صحفية
- الثورة والزمن المسروق	نصوص أدبية
- مصر الى أين ؟	نصوص أدبية
- وبكت الأشجار	مجموعة قصصية
- اتولدنا	شعر عامية
- قنديل وقربان	نصوص أدبية
- بين الكلمات	نصوص أدبية

*** ثلاثية السلام وهى :**

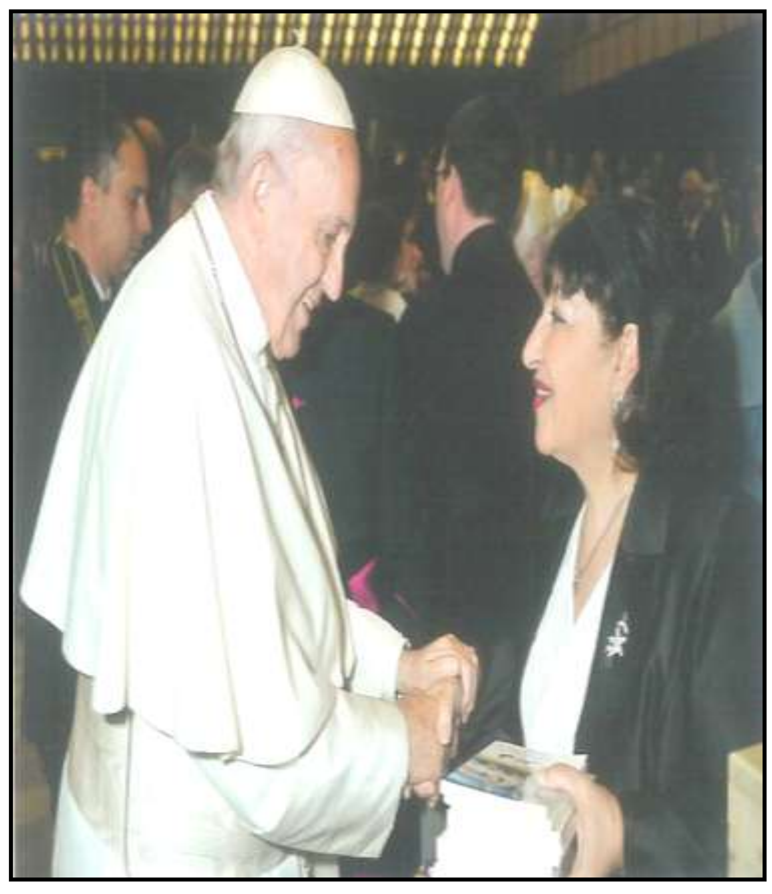
- عشق مختلف جدا — مواقف حياتية
- كلمات فى جزيرة السلام — نصوص أدبية
- كلمات فى أرض السلام — نصوص أدبية

وتمت ترجمتها بمعرفة الأزهر الشريف إلى اللغات الإيطالية والأسبانية والفرنسية ، وقدمت هدية لقداسة بابا الفاتيكان.

ألبوم صور



الشاعرة مريم توفيق تقدم كتاب (جزيرة السلام) لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الدكتور / أحمد الطيب



قداسة البابا فرنسيس بابا الفاتيكان يرحب بالشاعرة مريم توفيق



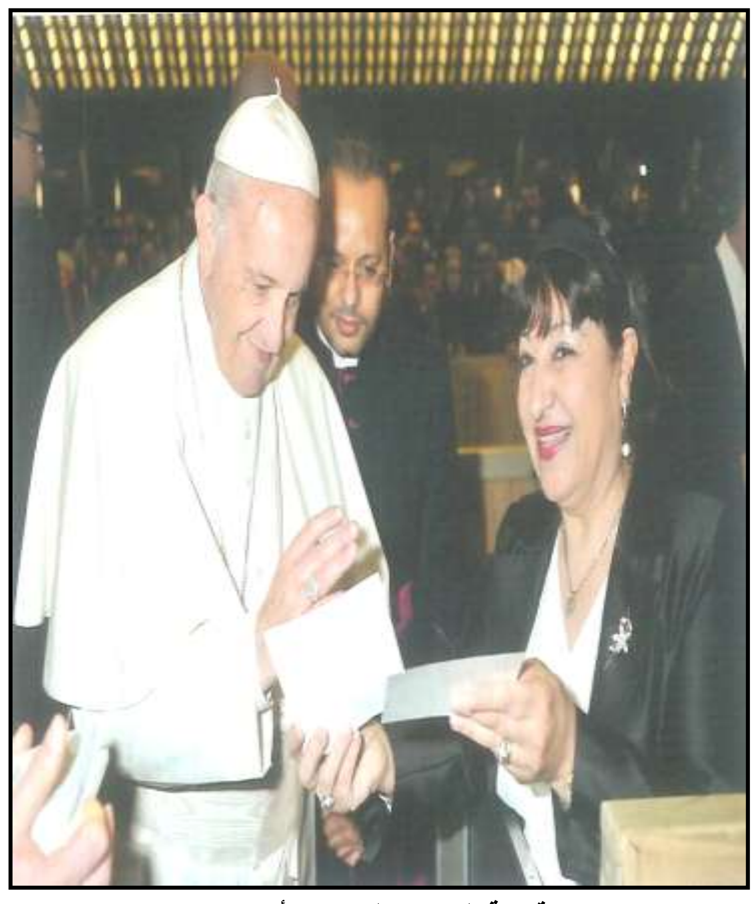
بابا الفاتيكان يبارك صور أحفادى



بابا الفاتيكان يبارك صور أحفادى



مريم توفيق تقدم كتاب (كلمات فى أرض السلام) لقداسة البابا فرنسيس



قداسة البابا يبارك صور أولادى

الفهرس